إبراهيم أبوناب
قطر
قصة بناء دولة

قطر

قصة بناء دولة

بسم الله الرحمن الرحيم

إبراهيم أبو ناب



قصة بناء دولة



مدخل

في شهر كانون الثاني عام ١٩٧٦ اتجهت انظار العالم كله تقريبا الى دولة قطر حيث كانت تجتمع منظمة الاقطار المنتجة والمصدرة للنفط في الدوحة العاصمة لتقرير نسبة زيادة اسعار البترول . وقبل اجتماع الدوحة ، عقد زعماء اوروبا الغربية لقاء هاما لبحث الاوضاع الاقتصادية لبلادهم على ضوء اسعار النفط واحتمالاته . ولا شك ان اجتماع الدوحة كان ماثلا امام اعينهم جميعا . وقد ذكر احد المعلقين في حينه ان اوروبا ربما قد بدات تدرك الى اين انتقلت الثروة الحقيقية في العالم بعد ان تضاعفت اسعار النفط اربع مرات منذ عام ١٩٧٣ .

ان دولة قطر التي هي احدى اعضاء « اوبيك » لم تعد احد مراكز هذه الثروة ولئن لعبت دولة قطر خلال السنوات القليلة الماضية دورا مؤثرا في الخليج والوطن العربي فان المستقبل ما زال يفتح امامها مجالات اوسع وارحب على نطاق العالم .

ان معظم دول « اوبيك » هي اصلا من دول العالم الثالث الذي اتصف بالفقر والتخلف والنزوع نحو الحرية والتقدم . والان وقد اخذت الدول المنتجة والمصدرة للنفط تتقدم الى مكانة خاصة بها ما بين العالم الثالث والعالم الصناعي فلاشك ان الاهتمام سينصب على كيفية تصرف هذه الدول تجاه العالمين وتجاه انفسها .

قصة قطر وان كانت قصة احدى دول (أوبيك) الا انها مهمة في حد ذاتها ومثيرة في ان معا . فهي تلقي ضوءا على تجربة فريدة خاصة وتكشف في الوقت ذاته عن شخصية عضو ، في مجموعة الدول ذات النفوذ الذي يتعاظم كل يوم ، بغض النظر عن حجم ذلك العضو .

كيف نشأت قطر ، وكيف تطورت والى اين تسير ؟

الفصل الأول

الدولة والأمير

العمـــل لا يكاد ينتهي في قصر الدوحة الكبير المطل على البحر او خارجـــه . فالعمال في الخارج يفرشـون التراب ويزرعون المصاطب واحدة فوق الاخـرى فيما يشبه حديقة معلقة ترتفع من حدود شـارع الكورنيش على مستـــــوى الشـاطيء الى اقدام القصر . والموظفون في الداخل يبداون اعمالهم قبل الثامنة صباحا ويعملون في المسـاء فلا تنطفيء اضواؤهم احيانا الا في السـاعات المتاخرة بعد ان يغادر الامير مكتبه عائدا الى بيته .

القصر مربع المساحة يتالف من طابقين ، بسيط في عمارته يحوطه حزامـــان طويلان من نوافذ تذكر بطراز اندلسي . وهو بشكله المربع ووقوعه على المرتفع المشرف يشبه قلعة خليجية . ولا يفصل حديقته عن البحر القريب الا كورنيش وشـارع .

على باب القصر يقف جنديان حارسان . وامام البوابة تمتد ساحة تقف فيها السيارات الا في المراسم عند تقديم اوراق اعتماد السفراء حيث يصطف حرس الشرف وفرق الموسيقى لعزف السلام . وعبر بوابة القصر ساحة داخليـــة مكشوفة وحديقة تطل عليها شرفات المكاتب .

في مكتبه الفسيح في الطابق الثاني يجلس الامير الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني وراء مكتب كبير ووراءه على الحائط مجسم خشبي كبير لشبه جزيرة قطر . هنا يستقبل الامير وزراءه ومستشاريه وكبار موظفيه فضلا عن السفراء واعضـــاء البعثات التي تزور البلاد . وهنا يقضي الامير معظم اوقات نهاره يتباحث ويقرر ويعطي التوجيهات ويصدر الاوامر .

ومن هنا ايضا يستطيع الشيخ خليفة ان يطل من نافذة المكتب على مينـــاء الدوحة القريب ويرى ويسمع صفارات سفن شتى من عابرات المحيط وسواها وهي تقترب لتأخذ مكانها على الرصيف الكبير . روى الشيخ في احدى المـرات وهو يرى هذا المنظر قصة حلمه في طفولته حينما كان يحلم بأن « تصبح الدوحة ذات يوم بلدا كبيرا مليئا بالبنايات الضخمة على شاطيء البحر تاتي اليها السفن من جميع انحاء العالم وتصير قطر دولة مستقلة ذات جيش وحكومة وكيان بين الدول فيها الشوارع والماء والكهرباء » .

في طفولة اميرها ، لم تكن قطر على شيء من ذلك . فالبنايات لم تكن سوى بيوت من اللبن والطين بلا ماء جار او كهرباء او اي من المرافق الضرورية في هذا العصر . والشوارع كانت عبارة عن طرقات وازقة ضيقة تمر بين هذه البيوت المتراكمة . وفيما عدا اهل البادية في خيامهم فلعل الكثيرين من اهل الدوحـــة كانوا يفضلون الاقامة في قواربهم على الشاطيء .

لم تكن قطر في طفولة اميرها الحالي قد تطورت كثيرا عما كانت عليه قبـــل ذلك بوقت طويل حينما ذكر سائح مر بقطر قبل آكثر من قرن من الزمـــن « ان الناس يعتمدون في معاشهم على البحر لا على اليابسـة ، ويعيشون في الغالـب على شواطيء البحر ويتجولون في مياهه ما يقرب من نصف السنة وذلك فـي الغوص بحثا عن اللؤلؤ . اما في النصف الاخر من السنة فانهم يصطـــادون السمك ويمارسون اعمال التجارة .

وهكذا فان بيوتهم الحقيقية هي القوارب التي لا يحصى لها عد والتي تملأ المرفأ الهاديء وتشكل خطا اسود طويلا على الشاطيء » . وذكر كاتب احدث عهدا ان قطر هي منزل اهل السفائن من العرب الذين يغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ ، ليس لهم زرع ولا حرث . » وقال : « ان عدد مراكب قطر التي كانت تخرج لصيد اللؤلؤ في اوائل هذا القرن قد بلغ ٨٧٥ سفينة . الا ان عددها اخذ يتناقص شيئا فشيئا حتى بلغ عام ١٩٢٨ م ٤٠٠ سفينة » .

حينما ولد الشيخ خليفة عام ١٩٣٠ م كان عدد سفن قطر لا يزال يتناقص . ولم يكن ذلك التناقص الا نتيجة انهيار اسعار اللؤلؤ الطبيعي الذي كان اهم مورد لثروة الناس في الخليج العربي عموما . وقد جاء انهيار اسعار اللؤلؤ الطبيعي بصورة رئيسية نتيجة المنافسة الحاده التي شكلها اللؤلؤ الاصطناعي الذي غمرت به اليابان اسواق العالم منذ بعض الوقت ونتيجة الازمة الاقتصادية الحادة التي كانت تأخذ بخناق العالم بسبب انهيار قوة الشراء وتفشي الكساد والبطالة .

يذكر الشيخ خليفة انهيار صناعة اللؤلؤ مثلما يذكر طفولته بالنسبة لبلاده حين يقول : « لقد شاهدت انهيار هذه الصناعة وارجو ان لا تتكرر هذه المأساة ابدا في حياة قطر وذلك بتنويع مصادر دخل البلاد وعدم تركها تعتمد على مصدر واحد للرزق مهما كان المصدر » .

يزيد دخل دولة قطر من البترول الان على الف وخمسمائة مليون دولار في العام . وربما وصل الدخل البترولي في المستقبل الى اعلى من هذا الرقم . ولو كان عدد سكان قطر مائتي الف نسمة حسب التقديرات فان الدخل البترولي وحده يعطي كل رجل وطفل وامراة في قطر نسبة من الدخل تصل الى سبعة الاف وخمسمائة دولار في العام وهي نسبة من اعلى النسب في العالم .

غير ان الدخل القومي في قطر بالنسبة للفرد الواحد هو اعلى بكثير من هذا الرقم لاسباب عديدة منها ان الدخل البترولي لم يعد يمثل الا ٥٥ بالمائة من الدخل القومي حسب تقرير المركز الفني للتنمية الصناعية في دولة قطر بينما يأتي حوالي ٣٥ بالمائة من الدخل من مختلف قطاعات الخدمات الاخرى كالتجارة والنقل والمواصلات والبنوك وغيرها . ويسهم قطاع الزراعة بحوالي ١٫٥ ٪ وقطاع الصناعة بحوالي ٣ بالمائة . ومنها ايضا ان عدد السكان القطريين المتمتعين بالجنسية القطرية هو اقل بكثير من تقديرات عدد السكان الاجمالي في قطر .

وبعملية حسابية بسيطة يمكن لاي اقتصادي ان يطمئن الى ان سكان قطر وشعبها لن يعانوا من اي نقص في المداخيل او اي ضيق في سبل المعيشة لفترة طويلة من الزمن اعتمادا على هذه المداخيل وتراكماتها وفوائدها .

ولكن الشيخ خليفة وهو يجلس في مكتبه في قصر الدوحة وحوله كل ما يشيع الاطمئنان يقول : « نحن لا نزال في البدايه ، اننا لا نستطيع الاطمئنان بعد » .

قال الشيخ خليفة مرة لصحفي : « هل زرت منطقة آم سعيد ؟ . . . من هذه

المنطقة تستطيع ان تطل على مستقبل قطر . اننا ننطلق في سباق مع الزمـــن . نريد ان نبني قاعدة صناعية تخفف من اعتمادنا على واردات النفط تدريجيا . انت تعرف أن البترول سينفد في يوم من الايام . فالتقديرات تقول ان ابار النفط ستنضب في مطلع القرن القادم . لن ينضب في عهدي ، بل في عهود الذيـــن سيأتون بعدي . ولذلك فان واجبي هو ان انتهي من بناء المجتمع الصناعي في قطر حتى تتحقق المصادر البديلة للدخل من النفط . ان الجيل المقبل هو امانـــة في عنقي . ولن ادخر جهدا ولا وقتا ولا عافية من عمري في سبيل بناء المجتمـــع الذي سيجيء بعد النفط . فقطر مثل كل بلاد العالم ، لا يمكن ان تتطور بدون ان يكون لها اقتصاد ثابت » .

كان الشيخ خليفة في اوائل الستينات ما يزال حديث العهد بمسؤوليـــات الدولـــة كنائب للحاكم وولي للعهد حينما اخـــذ يتخوف من نضوب البتـــرول . مخيرات البترول كانت قد بدأت تاتي في طفولة الشيخ فتفتح نوافذ من الامـــل لمستقبل افضل يستطيع الشيخ ان يراه ويحلم به . ففي عـــام ١٩٣٥ وقع امتياز النفط لمدة خمسة وسبعين عاما واستحقت قطر بموجب اتفاقية الامتياز اربعمائة الف روبية ومبلغ مائة وخمسين الف روبية سنويا لمدة خمس سنـــوات بعد ذلك ترتفع الى مبلغ ثلاثمائة الف روبية سنويا بالاضافة الى اربع شلنات استرلينية عن كل برميل من البترول الخام عند انتاجه . ولكن الانتاج تأخر الى عام ١٩٤٩ وكانت ريوع الامتياز مما يعين على سنوات الضيق الاقتصادي .

في عام ١٩٤٩ تركت قطر ناقلة واحدة للبترول تحمل ١٥٤٣٣ طنا من النفـــط الخام . وفي العام التالي ارتفع عدد الناقلات الى ١٠٦ وبدأ ياتي اول دخـــل بترولي منتظم فبلغ الدخل في ذلك العام مليون دولار . في العام التالي اي عـــام ١٩٥١ ارتفع الدخل الى ٤ ملايين دولار وظل في ارتفاع مستمر الى ان وصل عام ١٩٥٩ الى ٥٣ مليون دولار ، فجأة اشاعت شركات البترول في عـــام ١٩٦٠ أو ربما بعده بقليل ان بترول قطر سينضب بعد عشر سنوات .

ورأى الشيخ خليفة ان قصة اللؤلؤ ستتكرر مرة اخرى في حياة قطر . وحينما تولى مسؤولياته كولي للعهد ونائب للحاكم في عام ١٩٦٠ كان في راس اهتماماته ان يتأكد من امرين : أولهما ما اذا كان صحيحا بالفعل ان البترول سينضب بعد عشر سنوات والثاني هو ان يكون انفاق مداخيل البترول متفقا مع الحقائـــق الواقعية فلا تذهب الحكومة الى انفاق كل مداخيلها اولا بأول . وكان من اوائل ما عمله الشيخ خليفة هو ان اخذ يجمع في يديه كل الامور المتصلة بالبتـــرول وانفاق مداخيله .

كانت مدة السنوات العشر التي حددتها الشهركات البترولية هاجسا مـــن هواجس الشيخ خليفة التي لا تبعث على الارتياح . ولم يكن هذا الامر يزعجه وحده انما كان يزعج الاسرة الحاكمة كلها من ال ثاني واهل الراي في البـــلاد الذين ما ان انعقد اجماعهم في ٢٤ اكتوبر ١٩٦٠ على اختياره وليا للعهد ونائبـــا للحاكم حتى وضعوا ثقتهم في قدراته الادارية والسياسية لكي يعالج هذه الامور

في ٥ تشرين الثاني — نوفمبر من نفس العام ، اي بعد اقل من اسبوعين من توليه اعلى منصب في البلاد بعد الحاكم تولى الشيخ خليفة منصب وزير المالية. اخذ يعاون الحاكم في اداء واجباته وينوب عنه عند تغيبه عن البلاد ويتولى الحكم بدلا منه اذا ما طرا طارىء شرعي يحول دون مواصلته الاضطلاع باعبائه وبموجب هذه السلطات الواسعة اضطلع الشيخ خليفة بتطبيق احكام قانون تنظيم الادارة العليا للادارة الحكومية بالسلطات الشاملة التالية :

اولا : اعداد سياسة عامة تقوم على اساس خطة متكاملة تكفل للدولة اكبر قسط من النهوض الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والاداري .

ثانيا : اقتراح القوانين والمراسيم المنظمة للمبادىء الرئيسية والقواعد الاساسية للسياسة الحكومية العامة في كل من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والادارية وغيرها .

ثالثا : اصدار اللوائح والقرارات والاوامر الادارية اللازمة لتنفيذ السياسة الحكومية العامة .

رابعا : الرقابة العليا على سير النظام الحكومي المالي والاداري .

وبتولي هذ السلطات الشاملة اخذ الشيخ خليفه يحاول تحقيق حلم طفولته بتحويل البلاد الى دولة عصرية متطورة ذات اقتصاد ثابت قائم على اسس علمية مدروسة . واخذيستعين بالخبراء . ولكن ماذا يستطيع الخبراء ان يفعلوا خلال عشر سنوات ؟ وماذا يمكن لقطر ان تفعل بعد عشر سنوات ؟

طلب الشيخ خليفة اجراء دراسة علمية معمقة عن احتياطي قطر البترولي . ومثلما لا يستطيع ان ينسى انهيار صناعة اللؤلؤ وبداية انتاج البترول في قطر واشاعة نضوب النفط بعد عشرسنوات فانه لن ينسى ذلك اليوم الذي جاء فيه الخبراء بنتائج دراستهم التي تقول ان النفط في قطر لن ينضب قبل ٣٥ عاما على الاقل . وتنفس الشيخ خليفة الصعداء والفرحة بادية على وجهه . ان امامه وقتا طويلا حتى يستطيع ان يفعل فيه الكثير من اجل ان تستغني قطر عن البترول . واخذ يعمل بجد ونشاط .

في عام ١٩٧٥ كان باستطاعة الشيخ خليفة بعد ان اصبح اميرا للدولة ان يعلن انه لا يمكن الاعتماد على الدخل البترولي وحده منذ ذلك الوقت فصاعدا لتقدير دخل قطر الوطني . فانتاج البترول قد تناقص من حوالي ٢٧ مليون طن في عام ١٩٧٣ الى ما يزيد قليلا عن ٢٤ مليون طن في العام التالي . وقد قررت دولة قطر تخفيض انتاجها بما يتناسب وحاجاتها . كما اعلن ان مداخيل البترول لن تمثل اكثر من ١٥ بالمائة من مداخيل الدولة المباشرة بحلول عام ١٩٨٠ حينما يصبح القسم الاكبر من هذه المداخيل يأتي من صناعة البتروكيمياويات و الصناعات الاخرى الثقيلة والخفيفة . الشيخ لم يعد يتحدث في خططه ومشاريعه عن قطر سنة ١٩٨٠ وانما قطر سنة ٢٠٠٠ .

في هذه المسيرة الطويلة تقف عدة علامات فارقة وحاسمة في حياة الشيخ خليفة وحياة دولة قطر . ومن يعرف قطر جيدا يجد صعوبة كبيرة في الفصل في

هذه العلامات ما بين الدولة والرجل . والواقع انها قليلة جدا تلك الدول في هذا العصر التي يستطيع فيها رجل واحد ان يترك بصمات اصابعه على كل شأن من شؤون حياتها مثلما ترك الشيخ خليفة بصماته على دولة قطر .

حدودها الحديثة مثلا ، امنها ،تعليمها ، اجهزتها الادارية والمالية والاقتصادية سياستها الخارجية ، دستورها المؤقت ، جامعتها . . كل ذلك عليه بصمات الشيخ خليفة . كان رئيس جهاز الامن في اول مشروع بترولي في قطر ، ثم صار رئيس المحاكم المدنية ، ثم اول وزير للمعارف . وبالاضافة الى منصب نائب الحاكم وولي العهد تولى وزارة المالية . ثم اصبح رئيس مجلس ادارة هيئة نقد قطر ودبي. وعند تشكيل اول مجلس للوزراء في قطر كان رئيس المجلس بالاضافة الى وزارة المالية والبترول وقيامه بأعمال وزير الخارجية بالنيابة . ثم اسندت اليه رئاسة مجلس استثمار احتياطي دولة قطر . كل ذلك قبل ان يتولى مقاليد الحكم ليصبح اميرا للبلاد في ٢٢ شباط ـ فبراير عام ١٩٧٢ .

يعتبر الشيخ خليفة بن حمد ظاهرة في حياة قطر المعاصرة . وليس من المستغرب لذلك أن يتجه الصحفيون أول ما يتجهون اليه لمحاولة فهم الدولة وفلسفتها واتجاهاتها السياسية والمستقبلية .

كيف يعيش الامير وكيف يفكر ؟

احد الصحفيين سأل احد الموظفين في قصر الدوحة وهو ينتظر مقابلة الامير فقال : « متى يأتي سمو الامير عادة ؟ » قال الموظف : « يأتي في اي وقت . ليس له وقت محدد بالذات . ولكنه يأتي عادة في التاسعة صباحا او قبل ذلك او بعده حسبما تكون متطلبات عمله خارج القصر اوداخله » . وقال الصحفي : « وهل يعمل الامير خارج القصر ايضا » . قال الموظف : « طبعا » . ثم سأل الصحفي « ومتى يستريح ومتى يمارس هواياته وهل له هوايات معينة ؟ » وابتسم الموظف اخيرا وقال : « هل تريد ان تجري مقابلة معي عن الامير ام تجري مقابلة مع الامير ذاته » ؟

بعد مقابلة طويلة تحدث فيها الامير في كل المواضيع المطروحه عن النفط والاقتصاد والسياسة الداخلية والخارجية ،قال مراسل مجلة « اوجي » الايطالية للشيخ خليفة : « من المعروف عن سموكم انكم تعملون بشكل متواصل ليل نهار ، فهل معنى ذلك انه لا يوجد لديكم وقت للراحة ؟ »

وقال الشيخ خليفة : « انا لا اختلف عن بقية البشر . بعض الناس يحبون ان تكون لهم هوايات . وبالنسبة لي فان العمل هو هوايتي . وانا لا اشعر بالتعب من كثر العمل . على العكس من ذلك فان اكون منتجا احقق شيئا لبلدي وشعبي يجعلني سعيدا وهو بالنسبة لي افضل من الراحة » .

عاد الصحفي يضع سؤاله بشكل اخر : « هل لسموكم ان تحدثنا عن كيفية قضاء وقت الفراغ المحدود الذي يتبقى لديكم » ؟

قال الامير : « انني اقضي وقت الفراغ المحدود الذي يتبقى لي مع اسرتي مثل باقي الناس في بلدي ، فأنا لا اختلف عنهم وينطبق علي ما ينطبق عليهم » .

« أذن كيف يقضي سمو الامير يوما من ايام العمل العادية ؟ »

« في الساعة السادسة والنصف من كل صباح اقابل الناس بصورة غير رسمية في المجلس . وهذا اللقاء مفتوح ويستطيع كل من يرغب من ابناء الشعب المشاركة فيه . وهذه العادة لم استحدثها انا وانما توارثتها عن ابائي واجدادي كما ان هذه العادة ليست مقصورة علي فقط بل هي مشتركة بين كافة ابناء الشعب » .

واضاف الشيخ قائلا : « في المجلس ياتي عادة زوار للسلام . ومن كانت له مشكلة حللناها حسب الطريقة التقليدية . وبعد ذلك وحوالي الثامنة اتوجه الى مكتبي لتصريف امور الدولة وشؤونها فاقابل الوزراء والمستشارين والموظفين وابقى حتى الظهر . وكذلك في فترة المساء استانف عملي في المكتب لتصريف بقية الامور العالقة » .

مراسل التلفزيون الفرنسي عاد يضع نفس السؤال : « ما هي هوايات سمو الامير ؟ » وقال الشيخ خليفة : « الواقع انه سبق لزميل لك او اكثر وان سالوني هذا السؤال ذاته . ما هي هوايتي ؟ هوايتي هي الامانة الملقاة على عاتقي . امانة هذه الامة لانها ولا شك تنتظر مني اعمالا كثيرة وانا مكرس وقتي وجهدي لذلك لانني لا ارى في الهوايات ما هو اغلى من الامانة الملقاة على عاتقي ان ثقة الشعب هي هوايتي . وكل ما اراه من انجاز لمشاريع سواء كانت صناعية او عمرانية انما يجلب لي الراحة ويجعلني مسرورا » .

ربما يكمن في هذه الجملة مفتاح شخصية الامير كرجل سياسة . « ثقة الشعب هي هوايتي » . فهو كما يبدو يمارس هذا العمل بصورة واعية وعفوية في نفس الوقت منذ ان يفتح عينيه مع الفجر ويؤدي صلاة الفجر ثم يدلف الى مجلسه فيجالس الناس كما كان يجالسهم اجداده بعيدا عن الرسميات الحديثة وبدون وسطاء .


لقد فتح الشيخ خليفة عينيه وهو لا يزال طفلا على هذه العادة فراى والده الشيخ حمد يجلس للناس فيستمع الى شكاواهم ويفصل في قضاياهم ويتفقد احوالهم ويسال عن المريض والعاني والضعيف . وربما كان خليفة الطفل يقترب من والده الشيخ اكثر فاكثر ويتقرب اليه بما يرضيه لسبب نفساني اخر هو وفاة والدته وهو لا يزال رضيعا . وقد عهد ابوه بتربيته الى سيدة فاضلة ظلت تقوم له بمقام الام . غير ان مثله الاعلى كان الوالد الشيخ حمد الذي كان يمارس الحكم الفعلي بالنيابة عن والده المسن الشيخ عبد الله وكان في الوقت ذاته وليا للعهد .


كان خليفة يبقى الى جانب ابيه في مجلسه ويصر على ان يكون اخر من يغادر المجلس في الليل مهما بلغ به النعاس . ويظل يجالد نفسه حتى ينتهي الشيخ حمد من الفصل في قضايا الناس فيدنو منه ليقبل راسه وكتفه قبلة الاجلال والتحية . والشيخ حمد يرقب نجله وهو يشب عن الطوق ويقتدي به ويتعلم منه . وكان والده يكلفه بمهمات صغيرة هي جزء من تربية وجدانه الاجتماعي

كان يطلب اليه ان يتفقد احوال اسرة او يسأل عن مريض .
لا يذكر الشيخ خليفة الوقت الذي بدأ يشعر فيه انه مسؤول وانه سيكون الحاكم بعد ابيه . ولكن يبدو ان هذا الوعي قد بدأ مبكرا بالرغم من انه كان رابع اخوته . ويبدو ان « هواية » الطفل كانت هي كسب ثقة الوالد التي عمل على كسبها بمختلف الوسائل التي تلفت انتباه ابيه .
ذات يوم افتقد الشيخ حمد ولده خليفة في مجلسه فارسل من يستفسر عنه وعن مكان وجوده . وعادوا ليخبروه ان خليفة ملازم منذ الصباح حلقة السيد عبد الحميد الدايل وهو من افضل المدرسين في ذلك الوقت . وكان الطفل ينوي ان يتعلم فامتلأت نفس الشيخ حمد غبطة واعتزازا بولده الذي سعى بنفسه نحو العلم دون ان يكره عليه .
لا ندري ان كان اقبال الصبي على العلم هواية او جزءا من هواية كسب الثقة ، ولا ندري ان كانت شعورا مبكرا بالمسؤولية وبما ينتظر منه من « اعمال كثيرة » . ولكن هذه الاشارة على اي حال لهــا دلالاتها في تكوين عناصر شخصية رجل الدولة المقبل . فقد شدت هذه العملية انتباه الشيخ حمد الذي الحق خليفة فيما بعد بمدرسة السيد حسن عبدالله مراد فتعاون المربيان على تعليمه القرآن والفقه وسائر العلوم التي كانت متيسرة في قطر في ذلك الوقت.
وفي سن مبكرة شرع خليفة يساعد اباه في كتابة رسائله ويصحبه في مجالسه وندواته ورحلات الصيد وينوب عنه في زيارة الاسر وتفقد احوالهـا .
وصار الوالد الشيخ حمد يرى في ولده خليفة نظير ما كان يراه والده فيه من اهتمام بالشؤون العامة وحصافة في الراي وخلق ومزايا في معاملة الناس . واخذ يعده منذ وقت مبكر لتولي مسؤوليات المستقبل .
بروز القيادات في مجتمعات شبه الجزيرة العربية لا يحكمها قانون وراثي جامد وانما هي مزيج من العرف والعادة والرغبة والتوافق تلعب فيها قوة شخصية الزعيم المقبل ومعرفته بكيفية اكتساب الثقة وحسن السمعة الدور الاهم . والزعيم بهذا الاسلوب يقترب من السلطة ومقاليد الامور كلما اقترب اكثر فاكثر من قلوب الناس ومصالحهم ومعرفته باقناعهم بجدارته . وهو عليه ان يثبت قدراته ومزاياه بالممارسة قبل ان يبارك ذلك اجماع اولى الحل والعقد لاختياره رسميا .
وقد بدا واضحا للجميع ان الشيخ خليفة هو ذلك الرجل بعد ابيه .ولكن آمال الشيخ خليفة وما اعد له اصيبت بنكسة عنيفة عندما توفي الوالد الشيخ حمد فجأة في عام ١٩٤٧ . كان خليفة لم يتجاوز بعد السابعة عشرة من عمره والبلاد مقبلة على تطورات ضخمة في تاريخها تستعد فيها الشركات لانتاج اول شحنة من النفط . في ذلك العام كما تقول الايضاحات القطرية الرسميه » جرى التوافق بحضور اعضاء الاسرة الحاكمة واهل المكانة والراي في قطر على ما ياتي .
تكون الولاية في الحكم للشيخ علي بن عبد الله آل ثاني (عم الشيخ

خليفة) وتكون ولاية العهد للشيخ خليفة بن حمد آل ثاني » .
وهكذا اصبح الشيخ خليفة رسميا وليا لعهد قطر وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره ولكن الدور في منصب الحاكم قد تجاوزه الى عمه . صحيح ان الحاكم الشيخ عبد الله ، جد الشيخ خليفة ، كان لا يزال حيا يرزق ويعتبر الحاكم الرسمي للبلد .
ولكن الشيخ عبد الله كان قد توقف عن الممارسة الفعلية للحكم منذ عهد طويل حيث كان يمارسها ولي العهد المتوفي الشيخ حمد ، ولعل ان قرار الولاية للشيخ علي في عام ١٩٤٧ كان تمهيدا لتسليمه الحكم الفعلي بعد ذلك بسنتين وتنازل الشيخ عبد الله رسميا بسبب كبر سنه كما حدث فعلا .
الشيخ خليفة الذي كان الى جانب ابيه يشهد سنوات الجدب والفقر وانهيار صناعة اللؤلؤ ويرى تباشير انتاج النفط وما يمكن ان يجلبه النفط من خير للبلد ، اخذ يرى تدفق الاجانب على البلد من موظفي شركات وادارات حكومية . دوائر جديدة وشركات للاسكان والمواصلات والكهرباء والماء والموانيء والامن وغير ذلك مما هو ضروري لجعل انتاج النفط وتصديره ممكنا .
عالمان مختلفان متباعدان يلتقيان بحكم الضرورة . فالبلد يحتاج الى هؤلاء وهؤلاء هم في حاجة الى البلد . ولولا النفط لما كان احد في حاجة الى احد اللقاء لقاء مصلحة لا اكثر . ولكنه ايضا لقاء عادات وتقاليد مختلفة ولقاء عقليات واساليب مختلفة ولقاء لغات مختلفة ايضا .
لم يعد مجهولا في علم الاجتماع وعلم النفس ما يولده مثل هذا اللقاء من احتكاك وردود فعل نفسية واجتماعية وضغوط وكبت مشاعر مختلفة . ولقد سبق وان احدث مثل هذا اللقاء هزات نفسية واجتماعية في اماكن اخرى من العالم العربي حيث تراوحت ردود الفعل بين الانبهار الكامل مع الرغبة في تقليد القادمين الجدد في وسائل وطرق معيشتهم وبين الاعراض الكامل والرغبة في التخلص من هؤلاء القادمين وكل ما تنطوي عليه حضارتهم .
في قطر يبدو ان ردود الفعل كانت تحمل شيئا من ملامح الاتجاهين وهذا أمر طبيعي . ولكن الاتجاه الاعم الاغلب كان يتمثل في التمسك بالتقاليد والعادات الموروثة والالتقاء بالحياة الجديدة في منتصف الطريق على حذر . وهكذا بدت قطر بعد اكثر من عشر سنوات من انتاج النفط فيها وكأنها تسير ببطء .
في خريف عام ١٩٧٥ ، حينما كان الشيخ خليفة يقوم بزيارة رسمية لباريس كأمير لدولة قطر بدعوة من الرئيس فاليري جيسكار ديستان ، كان اكثر ما عبر عنه الرئيس الفرنسي من اعجاب هو « قدرة قطر واميرها على اجتياز تحديات عصر النفط دون ان يؤثر ذلك على التقاليد العريقة الموروثة لشعب قطر . » وحينما طرح سؤال على الشيخ خليفة بالنسبة للمستقبل وما اذا كان تصنيع البلد سيؤثر تأثيرا سلبيا على التقاليد الموروثة لشعب قطر قال الشيخ خليفة :
« ان الضمان الاكبر هو مزايا شعبنا التي تتلخص في حب البساطة







والتمسك بأهداب الشريعة الاسلامية . وما دام الامر كذلك فاننا لا نخشى تحديات التصنيع لان طريقنا الاسلامية كفيلة بايجاد الحلول لكل المشاكل ».

كان الشيخ خليفة وهو لا يزال شابا يرى المشاكل تتراكم في قطر على شكل دوائر حكومية تمتلىء جميعها بالاوروبيين وعلى الاخص البريطانيين. وكان يرى ان ذلك يشكل خطرا على النزعة الاستقلالية في قطر ويبعد البلد عن الاستقلال بشؤونها اكثر مما يقربها من السيادة التي تطمح اليها . ولذلك عوّل منذ البداية على احلال ابناء البلد من القطريين محل اولئك الاجانب على ان يكون ذلك على مراحل تمر بمرحلة تعريب الوظائف اولا بينما يجري بناء الهيكل البشري المحلي كأساس للهيكل الاقتصادي للبلد .

وهكذا تبلورت فكره وزارة المعارف التي قام بتأسيسها عام ١٩٥٦ كأول وزارة في قطر تحت رئاسته خارجة كليا عن نفوذ او مجال اي من الدوائر الحكومية التي كانت كلها في يد المديرين البريطانيين وتأتمر بأمر مستشار حكومة قطر البريطاني الذي كان يعمل بمثابة رئيس فعلي للحكومة ما عدا وزارة المعارف .

كان عمله في وزارة المعارف قريبا الى قلبه كوطني والى عقله كرجل سياسة يعدّ نفسه لمسؤوليات المستقبل . فهو في هذه الوزارة يضع اسس العمران الاجتماعي لقطر ويخلق قاعدة شعبية من المثقفين الذين يكونون الهيكل البشري للدولة . وما هي الا ثلاث سنوات من بداية تأسيس الوزارة حتى كانت قطر تشهد بداية التعليم النظامي بسبع عشرة مدرسة ضمت نحوا من الف واربعمائة طالب .

اعتمد الشيخ خليفة في وزارة المعارف على الخبراء والمدراء والمدرسين من البلاد العربية بصورة كلية . وكانت لهذه الوزارة ميزانيتها ونظامها الخاص ودوائرها المستقلة عن دوائر الحكومة .

ولربما كانت هذه الوزارة هي الجامعة الاولى للشيخ خليفة التي زودته بعد دراسته الاولى وممارساته وما تعلمه من ابيه ، زودته بمعارفه الحديثة عن الاتجاهات السياسية والعقائدية في العالم العربي . فقد غلبت الاتجاهات الحزبية المختلفة في هذه الفترة على المدرسين والمفتشين وحتى مدراء المعارف، حيث كان بينهم البعثي والشيوعي والتحريري والاخ المسلم والسوري القومي وغيرهم . وكان كل واحد من هؤلاء يطمح في ان ينشر افكاره ومبادئه بين الناشئة القطرية علاوة على محاولة استقطاب زملائه من المدرسين وتقريب آراء المسؤولين من آرائه سواء عن طريق شرح هذه الاراء او ممارسة سياساتها الكتلوية .

لم يكن انشاء وزارة المعارف بالنسبة للشيخ خليفة عملا ينطوي كله على المزايا والمحاسن والمكاسب وانما كان يشبه ايضا استيراد لغم موقوت يمكن ان ينفجر ويدمر المستقبل السياسي لولي العهد الشاب . كان الامر ينطوي على مغامرة كبرى وتحدٍّ كبير . فبالاضافة الى ان الوزارة بتكوينها

ودوائرها الخالية من اي موظف غير عربي ، كانت تعتبر تحديا وخروجا على طريقة تكوين الدوائر الحكومية الاخرى مما يثير حفيظة النفوذ الاجنبي فانهسا ربما كانت تثير احيانا بعض ظنون التقليديين من رجال الدين والمحافظين في امور لا يسهل عليهم قبولها كتعليم البنات ونشر بعض النظريات العلمية التي قد يتراءى لهم أنها لا تتفق والمعتقدات الموروثة والتي لا تمت في حقيقتها اي المعتقدات الى الدين بصلة .

هنا يواجه الشيخ خليفه بحذر شديد الكمائن والاحابيل السياسية مستعينا بفطرته وفراسته وحبه فوق كل شيء لوطنه وشعبه يدفعه ذلك الشعور الذي يلازمه منذ الطفولة بأن عليه أن يقوم بـ « اعمال كثيرة » . ويقرر انه اذا كان التعليم لغما فانه لغم ضروري لا بد من انفجاره بطريقة تدريجية تضيع اي اثر تخريبي او ان ينزع فتيلة .

وزارة المعارف كانت عبارة عن مجتمع عربي حديث مصغر فيها الفلسطيني والمصري والسوري والعراقي والسوداني والاردني وغيرهم . وفي هذا المجتمع العربي المصغر اخذ ولي العهد الشاب يمارس مبادىء « الحكم المتنور » البسيط الذي تعلمه بالممارسة من ابيه .

يقول احد اعوانه في ذلك الوقت ان ابرز الصفات التي تميز بها الشيخ خليفة في هذه الفترة كانت حسن اختياره لاعوانه وتحميله اياهم المسؤولية وتركهم يتصرفون بما يمليه عليهم وجدانهم ضمن حدود المعقولية وحسن التصرف . وكانت له فراسة ونظرة في الرجال يعرف معادنهم ونوعياتهم من اول لقاء .

لا يتحلى السياسي بالصبر فقط لتحقيق اغراضه وانما عليه خلال كل عمله وصبره ان يحرص على ميكانيكية التوازن . وفي قطر ، كما في اي مكان آخر من العالم ، يتعلم القياديون فضائل التوازن كأحسن ضمان ضد الانفلات والتطرف . انهم يتعلمون عن التوازن في العلاقات بين الدول كما يتعلمون عن التوازن بين قوى المجتمع الداخلي . وفي وزارة المعارف مارس الشيخ خليفة اساليب هذا الفن فوازن بين مختلف الجنسيات والاتجاهات بحيث كانت المحصلة لصالح نظام تعليمي مستقر يتطور بالتدريج .

خلال الاعوام المائة الاخيرة كان الفضل في بقاء قطر ككيان سياسي مستقل لا يعود الى شيء بقدر ما كان يعود الى اتقان حكام قطر من آل ثاني فنون التوازن التي جعلت الامبراطوريتين المتنافستين في المنطقة وهما الامبراطورية البريطانية والعثمانية تتفقان عام ١٩١٣ على ان تكون قطر خارج نفوذهما وسيطرتهما .

كانت وزارة المعارف ايضا اول مختبر لدولة الرفاه في قطر واحدى الدعائم الاساسية للاصلاح الاجتماعي . فقد كان الطلبة يحصلون على وجبات غذائية ايضا بالاضافة الى مجانية التعليم وعدم دفع اي نوع من الاقساط المدرسية . وبالاضافة الى ذلك كله فقد كانت هنالك مخصصات

مالية شهرية في البداية لكل طالب يلتحق بالمدارس.
احيانا يقع المرء في خطأ الاعتقاد بأن التعليم في البلدان المتخلفة لا يحتاج الى اكثر من افتتاح المدارس وتوفيره مجانا لكي يقبل عليه الناس ويرسلون ابناءهم اليها . وينسى المرء احيانا تلك القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتلك الرواسب التي تعمل ضد التعليم وتشكل عقبات هائلة في طريقه . فسيطرة الاب الكاملة على الاسرة واعتماده على الابناء كايد عاملة مساعدة في زيادة دخل الاسرة تجعل الاب مترددا على الاقل في تغيير هذا الوضع الذي يمكن للابناء فيه ان يحققوا فيه قدرا كبيرا من الاعتماد على النفس والاستقلالية . كما ان السيطرة الاجنبية بادواتها ورموزها تتعرض للخطر بخروج قوى جديدة بين الشعب تنظر الى الامور نظرة جديدة . وليس من الغريب ان تتحالف هذه القوى التي كانت متمركزة وقوية في قطر ضد الشيخ خليفة وزير المعارف .
طبعا ليس من الضروري ان يكون التحالف عملا تعاقديا ياتي بعد اجتماع واتفاق وانما هو تحالف ضمني تحركه المصالح المتشابهة والمتقاربة . وقد استطاع الشيخ خليفة ان يفك هذا التحالف ويخلع اسنانه بوضع المغريات المادية التي تجعل التعليم للطلبة وابائهم اكثر اغراء من عمل الاولاد. كما انه اعطى الاهمية الاولى في المدارس للتعليم الديني ليس فقط لاهمية الدين واهمية المحافظة عليه وليس فقط لضرورة التدرج حتى لا تحدث هزات ثقافية تخلخل المجتمع وانما ايضا لكي يبطل كل اشكال الاعتراض باسم الدين او سواه على المدارس الحديثة والتعليم الحديث ..
كانت روح القومية العربية التي اطلقتها ثورة ٢٣ يوليو في مصر في اوج استعارها آنذاك في الوطن العربي بشعاراتها الوحدوية ومعاركها مع البريطانيين . وكانت « مبادىء القومية العربية » في الخمسينات تمثل قاسما مشتركا بين جميع الاحزاب العقائدية ، تلتف حولها القوى الجماهيرية في الوطن العربي وتحمل شعاراتها وتنتظم في مظاهراتها . وقد انسجم الشيخ خليفة مع هذه المبادىء كوطني وكرجل سياسي . ولكن الشيخ خليفة استطاع ان يرى في هذه المبادىء ذلك القاسم الوطني المشترك الذي يحقق التوازن العقائدي ويدفع بكل القوى الوطنية والتحررية في العالم العربي نحو تحقيق المزيد من المكاسب . كانت المصلحة الوطنيه والذكاء والحنكة السياسية تقتضي اتخاذ موقف ايجابي من الحركة الوطنية التحررية ممثلة في « مبادىء القومية العربية » التي انضوى الشعب العربي في قطر تحت شعاراتها واشترك في تظاهراتها خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ . وقد اختار الشيخ خليفة بما عرف عنه من ذكاء وحنكة قائمة على مشاعر وطنية ان يكون في معسكر الحركة الوطنية وان يكتسب الشعبية بين شبابها . فلأول مرة في تاريخ قطر تقوم مظاهرات شعبية عارمة تشارك فيها النساء المحجبات تاييدا لمصر ضد قوى العدوان الثلاثي . وكل رجل ذي حس سياسي كان

يستطيع بأم عينيه ان يرى اتجاه حركة الجماهير وان يرى المستقبل ويقـرر على ضوء ذلك حساباته وخياراته .
كانت حسابات الشيخ خليفة صحيحة اذ ما فتئت منطقة الخليج كلهـا بعد هزيمة بريطانيا في السويس ان شهدت تراجعا بريطانيا كبيرا امام القوى الوطنية المحلية والنزعات الاستقلالية. شركات النفط أخـذت تفتـح ابواب المناصب الكبيرة ، التي كانت مقصورة على الاوروبيين امام المواطنين العرب. واخذت بريطانيا ترخي الزمام بسرعة كما حدث في الكويت.
وربما كان نشوء وزارة المعارف في قطر على الشكل الـذي نشأت فيه برئاسة الشيخ خليفة وتطورها في الاتجاه والتكوين الذي تطورت اليه يمثل جزءا من هذه المكتسبات .
الا ان الطريق كانت لا تزال طويلة امام قطر التي كانت فقدت استقلالها تقريبا واصبحت محمية بريطانية او شبه محمية عام ١٩١٦ . كانت الطريـق امامها طويلة وصعبة لاستعادة ذلك الاستقلال رسميا .
في عام ١٩١٦ اضطر حاكم قطر الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني الى توقيع معاهدة حماية مع ممثل بريطانيا السير بيرسي كوكس اصبحت قطـر بموجبها خاضعة لنصوص معاهدة غير بعيدة الشبه عن نصوص المعاهدات البريطانية الاخرى التي تنطبق على الامارات المتصالحة والبحرين وغيرهمـا في الخليج . وقد انتهزت بريطانيا الحرب مع الدولة العثمانية لكي تلغي مـا اتفقت عليه مع هذه الدولة من حرية قطر .
بموجب المعاهدة فقدت قطر حقها في استيراد الاسلحة او الاتجار بها كمـا كانت تفعل سابقا الا باذن من بريطانيا . وفقدت قطر حقها في اقامة علاقات او مراسلة اية دولة خارجية او استقبال اي ممثل لدولة اخرى دون موافقة بريطانيا . وفقدت حقها في منح اية تسهيلات تجارية او غير تجارية في اراضيها للدول او رعايا الدول الاخرى دون موافقة بريطانيا . واضطرت قطر بموجب المعاهدة الى الموافقة على معاملة الرعايا البريطانيين من اجل التجارة معاملتها لرعاياها . واضطرت الى السماح بانشاء دائرة بريد ومنشآت برق في اي مكان في اراضيها متى رغبت في ذلك الحكومة البريطانية .
هذا كان يعني في الواقع فقدان الاستقلال الخارجي وجزء غير قليل مـن الاستقلال الداخلي . وكانت الطريق الوحيدة المتاحة لاستعادة الاستقلال هي ممارسة كل الحقوق الاخرى التي لم تشملها المعاهدة ممارسة كاملة والـى اقصى حد ممكن لخلق واقع جديد يمكن ان تتآكل من خلاله المعاهدة وتصبـح بالية غير ذات موضوع . وسواء اكانت هذه الخطة في ذهن الشيخ خليفـة او لم تكن فانه كان يمارسها كما كان يمارسها والده الشيخ حمد عبر السنين الطويلة حتى اصبحت جزءا من تكوينه النفسي . فاذا كان الاستقلال هو في الدرجة الاولى حالة نفسيه قبل ان يصبح بنودا في معاهدة واعلانا رسميا فان هذه الحالة النفسية كانت قائمة وتتبلور بازدياد الامكانيات .

غير ان تبلورا من هذا القبيل وبمثل تلك السرعة ربما لم يكن ليـــروق للبريطانيين وأية قوة اخرى قد تكون ترى لها مصلحة في التحالف معهم وقد كان ولي العهد الشيخ خليفة يبرز بسرعة قوة شابة فعالة تملأ الحيز والفراغ اللذين لا يستطيع الحاكم الشيخ علي بن عبد الله ان يملأه . لقد نجح الشيخ خليفة فيوزارة المعارف مما ينذر ببناء قاعدة شعبية شابة تشكل خطرا داهما .
في عام ١٩٦٠ حد شتطور مفاجيء وجاءت علامه اخرى من العلامات الفارقة في حياة الشيخ خليفة وحياة قطر .
البيان القطري الرسمي الان يكتفي بذكر ما حدث بالطريقة التالية :
« خلافا لما جرى التوافق والتعاهد عليه في عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٧ م) بأن تكون الولاية للشيخ خليفة بن حمد ال ثاني ، اثر المغفور له الشيخ علي بـــن عبد الله ال ثاني ابنه الشيخ احمد بن علي ال ثاني بالحكم من بعده » .
يضيف البيان قائلا : بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٩٦٠ انعقد اجماع اولي الحل والعقد في امارة قطر على اختيار الشيخ خليفة وليا للعهد ونائبا للحاكم يعاون الحاكم في اداء واجباته وينوب عنه عند تغيبه عن البلاد ويتولى الحكم بـــدلا منه اذا ما طرا طاريء شرعي يحول دون مواصلته الاضطلاع باعبائه » .
بعبارة اخرى ، في عـــام ١٩٦٠ ارتأى حاكم قطر الشيخ علي ، خلافا للاعراف القائمة وخلافا للمواثيق المعقودة ، ان يتنازل عن الحكم لولده الشيخ احمد متجاوزا بذلك ولي العهد الشيخ خليفة .
الذين شهدوا عام ١٩٦٠ في قطر من عرب واجانب يقولون ان ذلك العـــام كان مشحونا بالتوتر في قطر وان احداثه لم تمر بتلك السهولة التي انتهت اليها في آخر الامر . وربما اختير ذلك العام لحدوث المجابهة بين القوى الشابة النامية حديثا وبين القوى المحافظة والمتمركزة وذلك قبل ان يستفحل امـــر القوى الشابة وتصبح سيطرتها حقيقة قائمة فعليا . وبدات تحدث المجابهـــة عندما اخذ الشيخ علي يعبر عن رغباته في التنازل لولده فوجد رفضا مـــن الشيخ خليفة يؤيده القسم الاكبر من الاسرة الحاكمة الذين يضعون اهميـــة كبيرة على المواثيق والتعهدات المكتوبة بشأن الحكم وولاية العهد . كانت هذه الشؤون وما زالت محفوظة ضمن نطاق الاسرة الحاكمة من آل ثاني . فهـــم « اهـــل الحـــل والعقـــد » .
ولكن الراي العام لم يكن بعيدا عن هذه الامور ممثلا « بأهل المكانة » الذين هم عادة مـــن وجوه الاسر الاخرى والتي تتصل بصلات القربى والمصاهرة بالاسرة الحاكمة وكان « اهل المكانة » ايضا يؤيدون الشيخ خليفـــــة .
وبدات المساومات والضغوط وراء الكواليس بلا فائدة . وكاد ان يحـــدث انقسام في البلد وفتنة .
رونالد كوكرين قائد قوات الامن القطرية البريطاني يروي وصفا طريفـــا لاحداث ذلك اليوم الذ يتنازل فيه الشيخ علي للشيخ احمد فيكشف بصورة واضحة عن وجود بارجة بحرية بريطانية في ميناء الدوحة ووجود ممثلـــي

« صاحبة الجلالة البريطانية » كما يكشف عن الاتجاه البريطاني في هـــــذه الاحداث ولو بصورة غير مباشرة .
كان رونالد كوكرين قد جاء الى قطر من البحرين عام ١٩٤٩ حيث كان يعمل شرطيا والتحق بخدمة الشيخ علي واعتنق الاسلام وسمى نفسه محمد مهدي .
وفي عام ١٩٦٠ كان كوكرين هذا قد صار قائدا لقوات الامن ! وبالاضافة الـى ذلك فقد أصبح ايضا نائبا للمستشار البريطاني الذي يقوم بمقام المدير العام لدوائر الحكومة .
كان كوكرين في الواقع يعيش في عالمين مختلفين دون ان يكون جزءا طبيعيا في اي منهما . فهو بريطاني وقطري في نفس الوقت مثلما هو كوكرين ومهدي .
وقد نشر وصفة لاحداث يوم ٢٤ اكتوبر باللغة العربية في المطبوعة الدوريـــة التي كانت تصدرها الجالية البريطانية باللغة الانجليزية لمنفعة اعضائها ، فلا الانجليز قراوا ما كتب ولا قراه العرب . وربما ان الوصف لم ينشر الا لكـــي يقراه كوكرين ذاته على مسامع الشيخ علي . قال كوكرين :
« في صباح يوم ٤ جماد اول ١٣٨٠ هـ الموافق ٢٤ اكتوبر ١٩٦٠ م واجابة الى الامر الرسمي بالحضور من قبل صاحب العظمة الحاكم الشيخ علي بـــن عبدالله بن جاسم آل ثاني ، اجتمعت عـــائلة آل ثاني في المجلس الشمالي وكانت مناسبة هذا الاجتماع تتسم بالوقار والرزانة » .
« وكان معظم افراد العائلة قد حضروا لزيارة صاحب العظمة الحاكم وتوجهوا للمجلس حيث لحق بهم صاحب العظمة واخذ مكانه المعتاد . وجلس افراد العائلة على يمينه ويساره وجلس الافراد البارزون بجانب ، اما الباقون فقد جلسوا في عدة صفوف مقابلين له . وفي مقابل عظمته تماما جلس ابنـــه الشيخ احمد بن علي آل ثاني وابن اخيه الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني » .
« وبعد ذلك اعلن صاحب العظمة الحاكم بطريقته الجليلة العادية وبصوته الثابت عن عزمه بالتنازل عن الحكم بسبب سوء صحته لصالح ابنه الشيـــخ احمد وعن رغبته باختيار ابن اخيه الشيخ خليفة وليا للعهد ونائبا للحاكم وخلفا لابنه الشيخ احمد » .
« ثم تلا هذا الاعلان على افراد العائلة الحاكمة ووقع كل بدوره هذه الوثيقة وعند انتهاء مراسيم التوقيع وقف صاحب العظمة كما وقف الجميع وتقـــدم الشيـــخ احمد والشيخ خليفة وباركهـــم وسلمهم مقاليد الحكم واوصاهـــم ان يتمشوا بنظام الدين الاسلامي . وبعد ذلك امسك صاحب العظمة يد الشيـــخ احمد واجلسه على كرسيه وبعدها ترك صاحب العظمة المجلس وسار الـــى المجلس الرئيسي حيث كان بانتظاره نائب المقيم السياسي لصاحبة الجلالة في الخليج العربي السيد م . س . ج . مان والمعتمد السياسي لصاحبـــة الجلالة في قطر السيد ج . س . موبرلي . وكان افراد العائلة قد طلبـــوا الاذن من الحاكم وولي عهده بالانصراف . وبعدها توجه عظمة الحاكـــم (الجديد) مع ولي عهده الى المجلس الرئيسي » .

« وبعد تبادل التحيات بين جميع الحاضرين تم تبادل المذكرات حـــــول الاتفاقيه الموجودة حاليا . وللمرة الثانية وقف الشيخ علي وامسك بيد ولده الشيخ احمد واجلسه على كرسيه وترك منصبه نهائيا كحاكم قطر » .

« واما صاحب السمو ولي العهد فقد طلب الاذن من صاحب العظمة وممثلي صاحبة الجلالة . ثم بعد ذلك توجه صاحب العظمة الشيخ احمد بن علي آل ثاني وبصحبته ممثلو صاحبة الجلالة الى البوابه الشرقية لقصر الريان حيث جهز صاحب العظمة حرس شرف من قوة شرطة قطر لاداء التحية لممثلي صاحبه الجلالة البريطانية الذين بدورهم جهزوا حرس شرف من افراد البحريه الملكية والتابعين للبارجة « روذفن » لاداء التحية لصاحب العظمة الحاكم » .

« وبعد اعلان التحيات اعلن عن هذه المناسبة بواسطة اطلاق احـــــدى وعشرين مدفعا في الريان والتي اعيدت من نقاط مختلفة في الدوحة » .

« وبعد تناول القهوة في النهاية مع صاحب العظمة الحاكم عاد ممثلو صاحبة الجلالة الى دار المعتمد السياسي ، وبعد مدة قصيرة قام عظمة الحاكـــــم بزيارة لممثلي صاحبة الجلالة في دار المعتمد السياسي » .

« ادت ثلة من حرس شرف البحرية الملكية التحية للحاكم عند وصوله دار المعتمد السياسي . وفي غضون ذلك كان هذا الخبر قد وصل الى الدوحة وقد تجمع جمهور كبير خارج دار المعتمد السياسي وحيوا الحاكم بتحيات صادقة . وقام عظمة الحاكم برد هذه التحيات قبل دخوله دار المعتمد السياسي . وقـــد ودع بتحيات مثلها عندما غادر دار المعتمد السياسي . ثم توجه صاحــــب العظمة بعد ذلك الى القيادة العامة لقوات الامن في قطر بالرميلة حيث توبـــل بهتاف حماسي عظيم من جميع الحاضرين . وفي الحال اصبح عظمته محاطـــا بعدد كبير من المرحبين والمهنئين وتراكض جميع الافراد من جميع الرتـــب وتجمهروا حول عظمته يصفقون ويهتفون مقدمين فروض الولاء والطاعة . وبعد ذلك عاد صاحب العظمة الى قصره في الريان » .

« في خلال فترة بعد الظهر انهمك الحاكم وولي عهده باستقبال المهنئيـــن بالمناسبة الموفقة بما في ذلك الموظفون الرسميون » .

« وفي صباح اليوم التالي اي ٥ جماد اول ١٣٨٠ الموافق اكتوبر ١٩٦٠ قام صاحب العظمة الحاكم الشيخ احمد بن علي آل ثاني بزيارة رسمية للبارجـــة الحربية التابعة لبحرية صاحب الجلالة « لوخ روذفن » .

« بهذه المناسبة اود ان اقول انه كان لي شرف خدمة عظمة حاكم قطـــر وعائلته لمدة حوالي ١٢ سنة حيث التحقت في خدمة الشيخ علي عندما تنـــازل والده عن الحكم في عام ١٩٤٩ م ، وفي خلال هذه المدة مرت احداث كثيرة على البلاد » .

« اشعر بشرف عظيم للسماح لي بان اكون معهم خلال جميع الاجراءات في هذه المناسبة وان لي املا كبيرا بان يتمتع سمو الشيخ علي بعمر مديد وبالصحة والعافية وان يبارك الله تعالى ابنه الشيخ احمد وابن اخيه الشيخ خليفة وان يرشدهم لما فيه الخير والمنفعة ويساعدهم في جهدهم على القيام لما عليهم من

مهام . ونحن جميعا نتمنى لاصحاب السمو بطول العمر والسعادة » . « ر . كوكرين » .

هكذا وصف كوكرين مراسيم ذلك اليوم . وكان له كما قال شرف الاشتراك في جميع اجراءاته . وقد تم بحضور ممثلين لصاحبة الجلالة ووجود افـراد البحرية الملكية البريطانية في قطر وبارجتهم في الميناء . وبهذا يكون التدخـل البريطاني في شؤون قطر الداخلية قد وصل الى ذروته متجاوز حدود عـدم السماح للرعايا الاجانب من غير البريطانيين بافتتاح المصالح التجارية داخل قطر الا بموافقة الحكومة البريطانية الى محاولات التأثير في توقيت واختيـار الحاكم .

ولئن احنى الشيخ خليفة رأسه للعاصفة في النهاية فما كان ذلك بـدون مقابل فقد جمع الى خصاله في الشؤون المحلية خصلة اخرى من جده الشيخ قاسم بن محمد الذي كان يقدر تقديرا صحيحا الوزن الحقيقي للدول المحيطة به والمتعاملة معه ويحسب حساباته بدقة فلا يقع في خطأ سوء التقدير . فلم يكن الامر يحتاج الى اكثر من شعرة بين الخطأ والصواب لكي تضيع المكاسب وتحدث الانتكاسة .

وهكذا استطاعت الاسرة الحاكمة ان تحافظ على تماسكها واشكال الصيغ المتوارثة . ومن ناحية ثانية وهي الاهم فقد حصل الشيخ خليفة على قسط كبير جدا من الصلاحيات والسلطات الفعلية كنائب للحاكم تمكنه من المضـي قدما في الطريق التي اختطها للبلد . يضاف الى ذلك ان ابن عمه الشيخ احمد الذي اختير حاكما لم يكن شرس الطباع او ذا طموحات شخصية مما لا يمكـن مداراته او معالجته . على العكس من ذلك فقد كان لين الجانب خجولا اعتاد في كنف والده على ان تأتيه الامور دون ان يسعى اليها . و في هذه الناحية فانه لم يحصل على ما حصل عليه الشيخ خليفة من تدريب عملي في الشؤون اليومية ومن السعي والتخطيط والتدبير .

وكان الشيخ احمد قريبا الى قلب الشيخ خليفة ليس فقط لصلة القربـى وتقارب العمر وانما ايضا لزمالة بينهما قديمة حينما كانا يمارسان القضاء قبل تشكيل المحاكم النظامية . وقد استطاع الشيخ احمد ان يكتسب ود الشيخ خليفة واحترامه بالاتفاق على السلطات وتوزيع الادوار واطلاق يد الشيـخ خليفة في الشؤون الادارية والمالية . وهكذا لم يمض اسبوعان على تولـي الشيخ خليفة سلطاته التنفيذية الجديدة حتى تولى اول وزارة تتألف في البلد بعد وزارة المعارف التي كان الشيخ خليفة سلمها لأخيه الشيخ جاسم بـن حمد منذ بضع سنوات .

وجد الشيخ خليفة الفرصة سانحة الان للمضي في خطته لتعريب الدوائر واعادة تنظيم جهاز الادارة في الحكومة . وكان هذا هو التحدي الكبير الاول في وزارة المعارف . ولم يكن هـذا التحدي بالامر السهل بالنظر الى تمركز المصالح الاجنبية وادواتها وتداخلاتها في هذه الدوائر .

بدأ الشيخ خليفة براس العقدة بابعاد هانكوك مستشار الحكومة البريطاني وابعاد رونالد كوكرين من قوة الشرطة . وبالقرار رقم واحد تم تعيين الدكتور حسن كامل المصري الجنسية مديرا عاما للحكومة . كان الدكتور حسن كامل خبيرا او مستشارا قانونيا قبل تعيينه في مركز المدير العام للحكومة . وقد استعان الشيخ خليفة بخبرة الرجل القانونية لاستصدار مراسيم تنظيم الادارة الحكومية تلك المراسيم الاساسية للادارة الحديثة في قطر .

غير أن حل هذه العقد الاساسية لم يكن بالامر السهل كما ذكرنا ، وكانت تتطلب بمبضع جراح سياسي يستطيع ان يقطع مراكز القوى المتلاحمة ويفصلها عن بعضها بالمغريات الوظائفية واللين حينا وبالحسم حينا اخر حتى لا يواجهها مجتمعة ويضطر الى محاولة ضربها عن طريق المجابهة . وفي كل ذلك كان يهمد الى اسلوب التوازن والموازنة بين القوى فيستعين ببعض القوى على البعض الاخر على ان يبقى التوازن قائمه دون رجوح إحدى القوى الى حد كبير على القوى الاخرى .

في اي تكوين سياسي اواقتصادي او اجتماعي لا سبيل الى عدم الاستقطاب ونشوء مراكز القوى . وان ضرب مراكز القوى عادة بالعنف كما يحدث في الانقلابات لا يقضي عليها تماما بقدر ما يتيح الفرصه لنشوء مراكز قوى جديدة اصعب مراسا واكثر حيلة واشد خطرا . والواقعية السياسية تقتضي اول ما تقتضي معرفة مراكز القوي وحقيقة قدراتها ومحالفاتها وتناقضاتها وبالتالي تحويلها الى أدوات مفيدة بالتوازن والتطويع بدلا من استعدائها وارغامها على التكتل والاضطرار الى الدخول معها في مغمرة الصراع العنيف .

ويبدو ان الشيخ خليفة قد نجح في « تحييد » مراكزالقوى في الجهاز الحكومي لمعرفته اولا بحقيقتها وحقيقة انتماءات كل فرد من افرادها وارتباطاته . ثم لانه عرف كيف يشذبها ويكتسب افرادها الى جانبه .

يقول احد الذين عاصروه في هذه الفترة : « انه يتمتع بقدرة على النفاذ الى لباب الموضوع وطرح الاسئلة الصحيحة التي يجب ان تسأل سواء اكان الموضوع المطروح سياسيا ام اقتصاديا أم هندسيا فنيا . ولديه من سحر الشخصية ما يجعله اذا وثق بانسان ما ان يشعره بأنه اخوه او زميله فتذهب كل البروتوكولات التي يحافظ عليها الامير عادة في معظم الاحيان » .

ولم يلبث منصب مدير الحكومة ان الغي بعد ان استقال منه الدكتور حسن كامل وعين مستشارا قانونيا للحكومة . وكان المنصب على اي حال يتعارض مع خطة اعادة تنظيم الادارة الحكومية وترشيدها باتجاه جديد . وفي هذه الاثناء كان قد تم الاستغناء عن جميع مدراء الدوائر من البريطانيين ما عدا مدير دائرة الاجهزة والاعتدة الميكانيكية وتم احلال مدراء عرب محلهم .

بذلك بدأ « ارساء قواعد البناء الاداري الجديد لقطر واقامته على احدث مبادىء علم الادارة . وقد شمل تنظيم الحكومة » كما يقول بيان قطري « جهازها الاداري المركزي وهيئاتها اللامركزية فضلا عن انشاء المحاكم

النظامية الحديثة بالاضافة الى الاشراف على النشاط الخاص الذي يحقق النفع العام » .

كان انشاء الجهاز الاداري الحديث في قطر هو الدعامة الانسانية الثانية بالاضافة الى التعليم في ارساء البناء الهيكلي التحتي للنهضة الاقتصادية والاجتماعية . وفي هذا البناء انشيء او اعيد تنظيم دوائرللصحة العامة والعمل والشؤون الاجتماعية والزراعة والتجارة وغيرها مما يشمل سائر المرافق الضرورية .

كان الشيخ خليفة ، كما يقول احد العاملين تحت امرته ، في هذه الفترة ياتي بالخبراء في جميع الشؤون ويطلب آليهم اجراء الدراسات وتقديم التقارير . خبراء في شؤون الاقتصاد والبترول والزراعة والصناعة والتنمية البشرية والعمرانية . كان يلازمه شعور ملحاح بضرورة مسابقة الزمن . فالبترول كما قالت شركات النفط سينفذ بعد عشر سنوات . ولا بد من بناء دولة عصريه لها جميع مقومات الدولة خلال تلك السنوات العشر الباقية من عمر الدخل البترولي .

تقارير الخبراء ، كما ذكرنا سابقا ، قالت ان « حقل دخان » للنفط لا يقل احتياطيه عن ٣٥ سنة اخرى من الانتاج بنفس المعدل . وخلال ذلك لا يمكن استبعاد تحقيق اكتشافات بترولية جديدة في شبه جزيرة قطر او مياهها الاقليمية . والامر يتطلب من شركات البترول ان تكون اكثر صدقا في تعاملها واكثر اخلاصا في جهودها لاكتشاف المزيد من الحقول . ان عليها أن تزيد من استثماراتها في التنقيب عن النفط أو أن تتخلى عن مناطق من اراضي الامتياز لشركات اخرى ترغب في التنقيب .

كانت مواجهة شركة نفط قطر ، التي تمثل مصالح شركات اجنبية عديدة ، بهذه المطالب هي اشبه ما تكون بمطالبة الحكومة البريطانية بالغاء عدد من بنود اتفاقية عام ١٩١٦ بل اكثر اهمية من ذلك ، ولكن الشيخ خليفة قرر ان يقوم بالمهمة مدركا انه اذا ما نجح فيها فانه يكون في الواقع قد نجح في جعل معاهدة ١٩١٦ ورقة بالية لا قيمة لها .

كان امتياز شركة نفط قطر لحسن الحظ غامضا يشمل « كامل مساحة شبه جزيرة قطر البرية » . ونصت المادة الثانية من صك الامتياز على ان « دولة قطر تعني كامل المساحة التي يحكمها الشيخ » . وفي ما قبل عام ١٩٥٠ اقدمت قطر على انكار ادعاء الشركة بأن امتيازها يشمل الجرف القاري وكانت بذلك اول دولة بترولية تقوم بمثل هذا العمل . وقد لجأت قطر في عام ١٩٥٠ الى التحكيم فحصلت على قرار يؤيد وجهة نظرها . وما لبثت أن حذت حذوها اقطار اخرى .

تمكنت قطر فيما بعد ذلك من اعطاء امتياز التنقيب في « جميع المناطق المغمورة » بالمياه لشركة (سوبيريور) اولا ثم لشركة شل .

في عام ١٩٦٣ نجح الشيخ خليفة في تحقيق اول تنازل لشركات النفط عن مناطق امتياز فحققت قطر بهذا الانجاز سابقة مهمة استفادت منها الدول

المنتجة للبترول في علاقتها مع شركات النفط .

والواقع انه لم تكد تمضي ثلاثة اشهر على تولي الشيخ خليفة منصبه كنائب الحاكم وولي للعهد عام ١٩٦٠ حتى كانت قطر تنضم الى « اوبيك » منظمة الدول والاقطار المنتجة والمصدرة للنفط . ففي كانون الثاني ـ يناير من عام ١٩٦١ انضمت قطر الى المنظمة كأول دولة بعد الدول الخمس التي تأسست منها المنظمة في ايلول ـ سبتمبر ١٩٦٠ .

لا شك ان قطر قد استفادت في هذه الانجازات البترولية بعد عام ١٩٦٠ من حركة التراجع الامبريالية التي اعقبت هزيمة السويس . ولكن مما يسجل للشيخ خليفة في هذا المجال انه لم يترك احداث عام ١٩٦٠ تخيفه او تثني من عزمه على المضي في الطريق . وما كان ظهور البارجة البريطانية في ذلك العام مع الاحداث السياسية الداخلية ليغير من تقديره الصحيح لموازين القوى العالمية .. ثم انه قد عرف كيف يستفيد من خبرائه القانونيين والبتروليين في تحقيق هذه الانجازات.

بالاضافة الى كل ذلك لا يمكن اغفال كيفية الاستفادة من موازين القوى الدولية في تحقيق المكاسب البترولية تماما مثلما لا يمكن اغفالها في تحقيق المكاسب السياسية . فلم تكن قوه قطر وحدها او قوة حججها القانونية لترغم شركة بترول كبرى او شركتين على البدء في التنازل عن مناطق من مساحات الامتياز لولا رغبات شركات اخرى بما وراءها من دول ايضا وضغوط في الدخول الى السوق والمشاركة في البحث والتنقيب .

ولكن الشركات الاخرى التي جاءت بعد شركة نفط قطر وبعد شل لم تكن لتقع في المحاذير والثغرات القانونية التي وقعت فيها الشركتان . اذ لا يكفي لتحديد دولة قطر القول بانها « جميع الاراضي التي يحكمها الشيخ» . ولا يكفي لتقسيم مناطق الامتياز الجديدة المعروضة للبحث والتنقيب ان يقال انها الاراضي المغموره في الغرب او الاراضي الصحراوية في الجنوب .

منذ اوائل عام ١٩٦٤ آخذت شركات البترول الوافدة الجديدة تطالب باتفاقيات سياسية تضمن حدود امتيازاتها ضد مطالب الدول المجاورة ومنازعات الحدود. ووجدت قطر نفسها امام ضروره سياسية لم تكن تنشأ فيما مضى من الازمان بمثل هذه المتطلبات الدقيقة . ومرة اخرى كان على الشيخ خليفة ان يدرس موازين القوى المحلية في منطقة الخليج وان يقوم بحسابات تجعل من الممكن تحديد الحدود البرية والبحريةمع جميع الدول المجاورة .

الخلفيات التاريخية على مدى اكثر من مائتي عام في المنطقة لم تكن لتساعد على مثل هذ المهمة . وان النجاح في هذه المهمة انما يعني استخلاص دولة ذات حدود عصرية حديثة من براثن منطقة كانت حدودها بشرية تلتصق بالقبائل على الاعم اكثر من التصاقها بالاراضي . ثمة جراحات نائمة على مسائل الحدود والممتلكات بين كل دول وامارات المنطقة . وعلى قطر ان تعالج هذه المسائل مع المملكة العربية السعودية وابو ظبي والبحرين

وايـــــران .

كان بامكان قطر لتجنب هذه المشاكل ان تعطي ضمانات بالحدود التي تعتقد انها حدودها وتزج بالشركات وما وراءها من دول في نزاعات حدوديـــة كما كان يحدث في القرن التاسع عشر حينما كانت تختلط منازعات الـــدول الكبرى بمنازعات الامارات في الخليج والعكس بالعكس . وتجنب المشاكـــل بهذه الطريقة لـميكن الا ليخلق مشاكل اصعب واكثر خطرا في المنطقة .

في عام ١٩٦٥ اتجه الشيخ خليفة الى الملك فيصل بما بينهما من مودات معروفة وصلات تاريخية حميمة بين الدولتين . وقد امكن في ذلك العـــام التوصل الى اتفاق حول حدود برية بين الدولتين اعلنت المصادقة عليها فـــي عام ١٩٧١ . وقد تأخر اعلان المصادقة على هذه الاتفاقية لاتاحة المجال امام امارة ابو ظبي لادراك ان الحدود البرية بين قطر والسعودية لا تترك مجالا لحدود بريه بين ابو ظبي وقطر ، وبالتالي لا تترك مجالا للنزاع بين الامارتين على هذا الموضوع . وبهذه الطريقة انتهت مشكلة منطقه « العديد » وخـــور العديد التي كانت قائمة مع ابو ظبي منذ عام ١٨٨٠ .

كانت منطقة « العديد » على الساحل الشرقي جنوبي شبه جزيرة قطر تشكل جزءا طبيعيا لا يتجزأ من شبه جزيرة قطر ويعول عليها اهل قطـــر كاحدى اهم المراكز في الجزيرة لصيد اللؤلؤ . وقد وصف الشيـــخ قاسم بن محمد في اواخر القرن الماضي العديد بانه « من خواص قطر ومتوسط فيـــه وهو عنا بطريق البر نحو ثلاث ساعات وكذلك بطريق البحر ، وعن ابوظبي مسيرة يوم ، وخرابه مضر بنا » .

وقد اسهمت هجرة القبائل وغزواتها في خلق مشكلة العديد بين قطر وابو ظبي الا ان التنافس بين الدولة البريطانية والدولة العثمانية هو الـــذي جعل بريطانيا تعتبر « العديد » تابعا لابو ظبي لابعاد النفوذ العثماني عنه وجعله بالتالي منطقة حدود مع الدولة العثمانية . وقد اغارت ابو ظبـــي في اواخر القرن الماضي على قطر بسبب « العديد » وانتقمت قطر بالاغارة على ابو ظبي في معركة « خنور » وردت ابو ظبي الغزوة بواقعة « قارة » وانتقمت قطر في موقعة « السويحان » ويوم الصفاء وكانت هـــذه الحروب مدمرة وغير مفيدة للفريقين بالرغم من الغلبة كانت على وجه العموم لقطـــر التي وصلت قواتها الى البريمي واثارت مخاوف دول عديدة .

لقد بقيت رواسب منازعات القرن التاسع عشر بعد ان ذهبت دواعيها واخذت دول المنطقة تحل هذه المشاكل بتعقل وهدوء . ففي الوقت الذي اخذت فيه قطر تسوي هذه الامور مع السعوديه ، كانت السعودية بدورها قد اخذت تسوي امورها ايضا مع ابو ظبي . وبالتالـــي استطاعـــت قطر وابو ظبي أن ترسما حدودا بحرية بينهما وان تتقاسما حقـــلا بحريا للنفط يدعى حقل البندق بالاضافة الى توزيع الجزر بما يجعل « القسمة » مرضية لكل الاطراف .

في خلال هذه الفترة ، وبالتحديد في اواخر عام ١٩٦٨ ذهب الشيخ خليفة الى طهران بدعوة من الشاه وبدأ محادثات لتحديد الحدود البحرية في الخليج بين الدولتين . وقد استطاع ان يحصل على معاملة متكافئة باقتسام الجرف القاري بين الدولتين بالتساوي وازالة الاسباب لاي اختلاف ممكن او محتمل .

يمكن القول على هذا الاساس ان الشيخ خليفة قد لعب دورا رئيسيا في بلورة حدود قطر الدولة بالشكل الذي هي عليه الان . ولم تبق الا بعض المشاكل العالقة بين دولة قطر ودولة البحرين حول جزر « حوار » الواقعة ضمن المياه الاقليمية لدولة قطر والتي تبعد ميلا واحدا عن ارض اليابسة القطرية بينما تبعد اكثر من سبعة عشر ميلا عن جزيرة البحرين . ويقول القطريون ان « من المعلوم ان كل ما يوجد من جزر داخل المياه الاقليمية يكون حكمه حكم الارض لان المياه الاقليمية لاي دولة هي ارضها المغمورة بالماء ».

مشكلة « حوار » تشبه الى حد ما مشكلة العديد التي حلتها قطر مع ابوظبي في اذار ١٩٦٩ بالتفاهم وتبادل المنافع . في كلا المشكلتين تظهر « الاثار » البريطانية حيث يقول القطريون ان السند الوحيد لتبعية جزر حوار للبحرين انما هو قرار بريطاني صدر عام ١٩٣٩ ولم توافق عليه قطر وقد واصل حكامها احتجاجهم عليه منذ ذلك التاريخ .

لقد راينا كيف نشأت ضرورة تحديد الحدود بدقة من عملية فتح مناطق الامتيازات البترولية التي تنازلت عنها الشركات امام شركات اخرى للبحث والتنقيب . وكانت هذه العملية منذ بدات تعتبر احدى المهام الاستراتيجية للشيخ خليفة في عملية بناء الدولة العصرية .

عير ان المهمة الاستراتيجيه الكبرى كانت تتركز حول تغيير الاقتصاد القطري وتطويره بحيث يستقر على قواعد ثابتة . ويقول الخبراء ان الشيخ خليفة ما ان انتهى في العامين الاولين من حل العقد الاساسية للادارة وارسائها على قواعد وانظمة واجراء اصلاحات عاجلة في مجالات الصحة والاسكان والشؤون الاجتماعية حتى كان في العام الثالث يتجه نحو ارساء البناء الهيكلي الاساسي لاقتصاد عصري من طرق ومواصلات وبنوك وشركات تأمين واصدار نقد خاص بقطر بدلا من الروبية الهندية .

الزراعة بشكل خاص استولت على اهتمامه ربما لارتباطها في ذهنه بالتكامل الطبيعي لاي دولة . فان الدولة التي لا تزرع شيئا والتي تعتمد في كل ماكولاتها على الاستيراد انما هي كالانسان الذي يعيش على نقل الدم الى جسمه . يضاف الى ذلك ما للزراعة من تاثير جمالي واثر على المناخ والصحة .

حتى اواسط الخمسينات لم تكن الحاصلات الزراعية ذات اثر يذكر في قطر . حتى الخضراوات كانت تستورد بالطائرات من البلاد العربية وعن طريق البحر من ايران . ولم تكن ثمة الا بساتين قليلة في شمال شبه الجزيرة .

وقد انشأ الشيخ خليفة دائرة للزراعة وعني بتطويرها ، فأخذت على عاتقها السعي نحو تحقيق الاكتفاء الذاتي من الانتاج الزراعي .

لادراك صعوبة هذه المهمة ، ينبغي ان نذكر ان ارض قطر في معظمها صحراوية منبسطة ما عدا تلال « دخان » في الغرب . فالارض تبدأ بالارتفاع تدريجيا من الشرق الى ان تصل الى هضبة صحراوية في الوسط تحتوي على مناطق من الحصا الصغير اوالرمال الناعمة الحمراء . وتقتصر مناطق الخضرة او العشب على المساحات المحيطة بالابار او المناطق المنخفضة التي تجري فيها الوديان بعد المطر . ومعظم هذه المناطق تقع في شمال شبه الجزيرة . اما في بقية البلاد فان سطح الارض الصحراوي هو السائد لا تغيره الا بعض الشجيرات « العرفج » وشجر « النبك والنخيل » .

الى جانب هذه الاحوال الطبوغرافية القاسية فان مناخ قطر هو على درجة موازيه من القسوة تصل فيه درجة الحرارة في اشهر الصيف الى ما فوق المائة درجة فهرنهيت . وترتفع الرطوبة النسبية الى درجة عالية في الصيف حيث تصل الى ٨٠ بالمائة في شهر آب ـ اغسطس .

وبالرغم من ان الجو في الشتاء جميل فان المطر قليل الى حد الندرة . فقد هطل المطر خلال عام ١٩٧٣ ثلاث مرات فقط منها مرتان في كانون الثاني ـ يناير ومرة في نيسان ابريل . وبلغ منسوبه ٢ر٢٢ ملمترا .

يضاف الى هذه الاحوال الارضية والمناخية قلة الكثافة السكانية وعدم وجود طبقة فلاحية بين السكان المحليين سوى اولئك المزارعين القادمين من البلاد العربية وعلى الاخص من قطاع غزة في فلسطين .

بدأت دائرة الزراعة بزراعة الاشجار وانشاء بعض الحدائق العامة . ثم انشأت مزرعة تجريبية كنموذج يستعين به الراغبون في الزراعة واخذت تقدم السماد وخدمات الجرارات الزراعية مجانا للمواطنين مع تقديم البذور والشتائل والارشاد الزراعي . ونلاحظ في هذا المجال تطبيق مبادىء دولة الرفاه على التنمية الزراعية . فان تقديم كل هذه الخدمات المجانية يتوازى مع مجانية الطب والعلاج والتعليم .

في الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٣ تضاعف انتاج الخضار عشر مرات من ١٧٠٨ اطنان الى ١٧٧٤٨ طنا والعلف ٢٤٨٠٠ طنا وقفزت مساحة الاراضي المزروعة بالخضار الى ٩٤١٣ دونما وبالعلف الى ٣١٠٠ دونم . وفي عام ١٩٧٤ خصص ١٤٠٠ دونم لزراعة الفواكه .

وكالة الامم المتحدة للتنمية اجرت دراسة للتربة تبين منها ان الاراضي الصالحة للزراعة تبلغ مساحتها ١٨٩٢٩٠ دونما والاراضي الصالحة للزراعة تحت ظروف خاصة ٨٦٩١٠ دونمات . ولكن المشكلة الرئيسية هي الماء .

كان الشيخ خليفة مع تطور الزراعة يوليها اهتماما خاصا اكثر من ذي قبل بالنظر الى تطور مشكلة الغذاء في العالم . وليس ادل على هذا الاهتمام

من ذلك الحديث الذي اجراه معه ذات يوم عام ١٩٧٤ احد الصحفيين حول الزراعـــــة.

كان الشيخ قد انتهى من اجتماع عمل مع مجموعة من خبراء الاغذية. وكان فرحا سعيدا ابتسامته تشع على وجهه.

قال الشيخ : « صدق او لا تصدق ، لقد دخلت قطر مرحلة التحول الــى بلد زراعي . لقد نجحت تجربة زراعة القمح ، جرت التجربة في المزرعـــة الحكومية في « روضة الفرس » ، وكانت نتائجها طيبة . والمفروض ان تتسع التجربة في الاراضي الصالحة للزراعة لاختيار اصناف القمح التي تتلاءم مع الجو والظروف والمناخ » .

قال الصحفي : « القمح يحتاج الى امطار » .

قال الشيخ : « هذا صحيح ولكن بالامكان الاستعاضة عن ذلك بالــري الكثيـــف » .

قال الصحفي : « والجو ؟ القمح يحتاج الى مناخ معين » .

قال الشيخ : « بالامكان زراعته في اكتوبر . وبعد خمسة اشهر اي في فبراير يمكن حصده . فنحن نبحث عن اصناف القمح التي تتحـــمل الجو الحار ، الاصناف الصلبة » .

قال الصحفي : « لنفرض ان موجة حر جاءت في هـــذه الفتـــره ، اي بيـــن اكتوبر وفبراير ، فماذا يحدث ؟ »

قال الشيخ : « هذا فصل الشتاء عندنا واحتمالات الحر قليلة ، ولكـــن اذا حدث فستضمــــر الحبوب قليـــلا وسيتاثر الانتاج بدون شك . ولكن هذا لا يعني ان لا يزرع القمح . كل البلاد الزراعية معرضة لمثل هـــــذه الظروف الاستثنائية السيئة .»

وعاد الحديث عن الامكانيات الزراعية التي اثبتتهـــا الدراسات : دراسات خاصة بالمياه الجوفية ودراسات خاصة بمحاصـــيل الخضراوات وانواع الفواكه والحبوب ومشاكل التربة وانواعها . وخطة تهدف الـــى الاكتفاء الذاتي من اللحوم والخضراوات . ثم انشاء مزرعة حكومية للدواجن بطاقة انتاجية تبلغ حوالي نصف مليون طير وخمسة ملايين بيضة.

قال الصحفي : « بدأتم التصنيع قبل ان تبداوا المرحلة الزراعيـــــة ، والعكس هو الذي يجري عادة في البلاد الاخرى » .

وقال الشيخ : « كان انطلاقنا من الثروة الاساسية التي نملكها وهي البترول . والبترول صناعة . وكما فعلنا في الحقل الصناعي ، عندما اقمنــا مجمعات صناعية يكمل بعضها البعض الاخر ، هكذا سنفعل الان في الخطــة الزراعية الخمسية : مصنع للعلف ، تربية المواشي ، اقامة وحدات لتقطير المياه والتوسع في الزراعة . ان قطر تستورد الان كميات ضخمة من اللحوم والالبان ولذلك نريد ان ننتج كل ما نحتاج اليه هنا .
امكانية الزراعة موجودة . التربة صالحة والمياه متوفرة » .

كل شيء ممكن . ولكن ماذا عن تكاليف الانتاج . اليس من المحتمل ان تصبح تكاليف استصلاح الارض وتقطير المياه باهظة تجعل استيراد القمح ارخص من انتاجه ؟ ولكن القضية هنا ليست هي قضية انتاج القمح ، والتكاليف ليست لانتاج القمح فقط . ولكن القضية تنطوي على مكاسب كبيرة من التحويل الزراعي . فالاراضي المستصلحة ثروة . والخبرة التي يكتسبها ابناء البلد في الانتاج الزراعي ثروة . والثقة التي يحصل عليها البلد من معرفته بقدرته على الانتاج ثروة ، وكل هذه ثروات باقية مما لا ينضب كالبترول .


ويقول الشيخ خليفة : « قد لا يكون الانتاج تجاريا في بداية الامر ، تماما كما حدث عندنا عندما بدانا في انتاج الخضار . أنت تعرف اننا نصدر الان بعض الاصناف . صحيح بكميات محدودة ، ولكن في الامكان ان تزداد. ثم ان تحلية مياه البحر تكلفنا هنا اقل من تكاليف استخراج المياه الجوفية . الف غالون تقطير يكلف بين ٣ و٥ ريالات . بينما يكلف الالف غالون من الابار الجوفية ١٢ ريالا . الغاز موجود عندنا بوفرة والحمد لله » .


كان من الطبيعي أن تسبق الصناعة الزراعة في قطر . فالانتاج البترولي هو في حد ذاته صناعة . ولكن الشيخ خليفة بدأ يفكر جديا في التصنيع منذ أوائل الستينات وكان تفكيره في هذا المجال واقعيا واستراتيجيا في نفس الوقت . فالهدف الاساسي من التصنيع هو نفس الهدف الاساسي من عملية التحويل الزراعي ، انه توسيع القاعدة الانتاجية وتخفيف الاعتماد شبه الكلي على مصدر وحيد للدخل . ويتحقق ذلك ببناء اقتصاد متوازن يستطيع الصمود في وجه التقلبات التي قد تصيب قطاع النفط سواء تكنولوجية او سياسية او عالمية .

وقد سار الشيخ خليفه منذ البداية سيرا متوازنا في تحقيق الاقتصاد المتوازن . منذ عام ١٩٦٣ وافق على انشاء عدد من المشروعات الصناعية الاولية التي تستفيد من البترول والغاز والثروة المائية والتي تشكل جزءا من التنمية الصناعية كمصنع الاسمنت ومطاحن الدقيق ومصنع تجميد وتعليب الجمبري ومعمل لتكرير البترول بالاضافة الى وحدات تحلية مياه البحر . واضيف فيما بعد الى هذه المصانع مصنع الاسمدة النيتروجينية في ام سعيد.

الا ان كل ذلك لم يكن ليشكل التحول الكبير نحو التصنيع بالشكل الذي كان يتدارسه الشيخ خليفة مع خبرائه . وكان المراقبون الاجانب على وجه التخصيص يتشككون في الاحاديث الطموحة والمخططات المستقبلية مشيرين الى أن الصناعة المتقدمة لا تنزل من السماء فجاة ولا حتى بالمال . ثم ان هذه الصناعة لا تنطوي على تحولات اقتصادية فحسب وانما هي تنطوي ايضا على تحولات اجتماعية وسياسية داخلية في تركيب المجتمع . فهل الحكم في قطر مستعد لتقبل هذه التحولات ومواجهة ما ينجم عنها من مشاكل معقدة ؟









ظل هذا السؤال يطرح نفسه على الشيخ خليفة في مراحل متعددة من تطور تفكيرة وعمله . يطرحه الخبراء ويطرحه الصحفيون والدبلوماسيون والصناعيون ويطرحه ولا شك الشيخ خليفة ذاته على نفسه وعلى خلصائه.

في عام ١٩٧٤ فاجأ الشيخ خليفة العالم بحديث صحفي الى مجلة « الحوادث » اللبنانية فيه تأكيد على الخيار الذي اختاره مع شرح ضاف للمشاكل التي ينطوي عليها واجابات على معظم الاسئلة تقريبا . وفي العام التالي ، وكأن الحديث وحده لم يكن كافيا ، « فوجيء » الدبلوماسيون في الدوحة ، كما ذكرت صحيفة التايمز اللندنية في حينه ، باحتواء ميزانية الدولة على « تغييرات متصاعدة » في مدى وتكاليف البرنامج الصناعي .

نترك هذا الحديث وهذه التفاصيل للفصل الخاص عن « قطر والمستقبل » لاننا في الواقع ما زلنا مع الشيخ خليفة وقطر في المرحلة التي سبقت اعلان استقلال البلاد وتولي الشيخ خليفة مقاليد الحكم كامير للبلد . فكأنما كانت كل احداث حياته تهيؤه لهذه الفترة المقبلة التي بدأت ذات يوم عام ١٩٦٨ .

في السادس عشر من كانون الثاني — يناير اعلن هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا وزعيم حزب العمال الحاكم في مجلس العموم البريطاني عن عزم بلاده على الانسحاب العسكري من الخليج العربي في موعد اقصاه عام ١٩٧١ . وجاء هذا ضمن سياسة بريطانيا العسكرية الجديدة في المنطقة الواقعة الى الشرق من السويس . وكان الموقف المعلن لهذا التغيير في السياسة البريطانيه هو محاولة تخفيف اعباء بريطانيا والتزاماتها المالية ، فالميزانية والوضع المالي والاقتصادي للبلاد لم يعودا يحتملان نفقات الدور القديم للامبراطورية البريطانية كحارسة أولى للمصالح الغربية في منطقة شاسعة من مناطق العالم كالمحيط الهندي والخليج العربي حيث بدأ السوفيات ينشئون لهم وجودا بحريا وسياسيا في تلك المناطق .

هذا الاعلان البريطاني وتوقيته وان جاء مفاجأة لم يكن يتوقعها احد في الخليج الا ان الشيخ خليفة لم يشعر انه لم يكن مستعدا لها . بل انها بدت له في لحظة من اللحظات وكأنما هي قد جاءت تأكيدا لحساباته الداخلية والخارجية . فبالرغم من تأكيدات خبراء البترول بطول عمر البترول النسبي في قطر فان العشر سنوات قد بقيت في ضميره شعورا داخليا يدفعه لاعداد قطر اقتصاديا خلال عشر سنوات من عام ١٩٦٠ . وقد تفرعت من قضية البترول جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاخرى فوصلت قطر في عام ١٩٦٨ الى مستويات متوازية في جميع تلك الميادين .

ذكرنا ما وصلت اليه في ذلك العام من الناحية الاقتصادية في التنمية الداخلية دخل بترولي محترم وبناء هيكلي تحتي يصلح قاعدة للبناء الاقتصادي في مرحلة التصنيع وتنويع مصادر الدخل . وجهاز تعليمي بدأ خريجوه القطريون يعودون من الجامعات ويستطيع الان ان يرفد ادارات

واجهزة للدولة . وجيش صغير ولكنه حسن التدريب والتنظيم . واداره حكومية منظمة ومنسقة تعد من افضل الادارات في الخليج العربي كلــه . ونظام تأمين اجتماعي للمواطنين يوفر العــلاج والدواء والتعليم مجانـا والمساعدات الاجتماعية لمحدودي الدخل ومشروعات اسكان شعبية.

على الصعيد السياسي كانت قطر قد تجاوزت جميع بنود معاهـدة ١٩١٦ تقريبا سواء في مجال الاتصال المباشر بالدول او السماح للرعايا الاجانـب بالاقامة فيها وانشاء المؤسسـات المصرفية والتجارية وغيرها . وقد أنضمت الى « اوبيك » كاية دولة مستقلة .

الاعلان البريطاني لم يجد قطر غير مستعدة للاستقلال . على العكس من ذلك فقد وجدت قطر فرصتها « لتكريس استقلالها » والانطلاق لكـي تلعب دورا رائدا في منطقة الخليج على اساس ان يعتمد الخليج على ذاتـه سياسيا وعسكريا واقتصاديا .

كان الشيخ خليفة يدرك ان ثمة فرقا بالطبع بين انسحاب عسكـري بريطاني وانسحاب سياسي واقتصادي . وكان يرى ان « الاقتصاد هـو الاساس » وان الاستقلال السياسي لا يقوم الا على اسس اقتصادية صلبة وكذلك القوة العسكرية وكان التراجع البريطاني واضحا لكل سياسي وعلى الاخص منذ فشل حملة السويس الذي تبعه فشل آخر في جنوب الجزيرة العربية . ولكنه لم يكن ليعادي بريطانيا التي لا حاجة له بمعاداتها . وانمـا كانـت سياسته ترتكز على كسب تعاونها وتعاون غيرها في تحقيق تكامل الخليـج ووحدته واتحاده .

صحيح ان السياسة البريطانية في الخليج منذ وجدت كانت دائما تقـوم على اساس تكريس الامارات والمشيخات دون انضوائها ضمن دولة كبيرة. فان اي شيء من هذا القبيل قد يهـدد المصالح الاستراتيجية لبريطانيا . وقد قدر الشيخ خليفة ان المصالـح الاستراتيجية البريطانية في الخليج قد تغيرت نوعيتها وازدادت اهميتها عما كانت عليه في القرن التاسـع عشر . لقد تغير الخليج من ممر للتجارة الى مركز لها وسوق ذات قوة شرائية كبيرة ومصدر لاهم المواد الخام كلها الا وهو البترول . وعلى ذلك فالانسحـاب العسكري البريطاني ما هو الا خطوة تكتيكية من اجل الحفاظ على المصالح الاستراتيجية.

وقدر الشيخ خليفة ان الفرصة قد تكون سانحة الان امـام دول الخليـج واماراته لكي تقيم علاقاتها مع بريطانيا وجميع الدول على اسس متكافئة قائمة على التفهم المتبادل لمصالح الطرفين . وهذا التفهم المتبادل يمكن ان يجعـل بريطانيا تتعاون في تحقيق وحدة الخليج وتقويته بدلا من ان تقف حجر عثرة في طريقـــه .

تعلم الشيخ خليفة في هذه الفترة وما بعدها ان يكره كلمة « الفراغ » وان ينفـر منها لكثرة ما استعملت او اسيء استعمالها . وبعض الصحفيين يذكر كيف ينفر الشيخ خليفة من هذه الكلمة عند ذكرها ويقول : « اي فراغ ؟ لا

يوجد فراغ في هذه المنطقة طالما ان شعبها فيها وهو الذي يملأ الفـــراغ . »
ولكن كلمة الفراغ كما كانت تستعمل في الصحافة الاجنبية كانت تنطوي علـى الاهانة بافتراضها ان الخليج في حاجة الى من يملأ الفـــراغ العسكري فيــه غير دول وامارات الخليج ذاتها .

ادرك الشيخ خليفة رغبة بريطانيا في « تحديث » علاقاتها بالخليج وليس تغييرها . واحس احساسا قويا بان الأمر يعتمد على امارات الخليج ذاتها في الاستفادة من هذه الرغبة لجعل العلاقات متكافئة على اساس النـــد للنـــد وبالتالي انشاء دولة عربية خليجية قوية ذات شأن لها مقومات الدول القوية من سكان ومساحة وموقع ومصادر دخل .

علـــى هذا الاساس ، وبينما احدث الاعلان البريطاني عـــن العـــزم بالانسحاب ردود فعل في بعض الامارات تتسم بالبلبلة والتحرك باتجاه بريطانيا والدول الاخرى ، كانت ردة فعل قطر تتسم بالامل والثقة والتحرك نحـــو الامارات ذاتها .

في الواقع كان مسلك هذه الامارة او تلك له ما يبرره . فلم تكن كلها فـي ظروف داخلية وخارجية مماثلة . المعاهدات التي وقعتها بريطانيا في الخليج منذ عام ١٨٢٠ لم توقعها مع دول معترف بها بقدر ما وقعتها مع شيوخ بينهم مناحرات وثارات ومطالب . وكانت الامارات ذاتها تحتاج الى تحديث لكـي تقترب كياناتها من المتطلبات العادية للدولة .

وكان الوضع في الخليج مائعا . اذ ليس فقط ان العراق كان يطالـــب بالكويت وكانت ايران تطالب بالبحرين ، فالبحرين تطالب ببعض الجزر القريبة من شبه جزيرة قطر وقطر ببعض الجزر التي تدعـــي ملكيتهـــا البحريـــن والسعودية تطالب بواحة البريمي من ابو ظبي وابو ظبي تطالب بمنطقة في الجنوب الشرقي من قطر وهكذا . . .

ولم يكن هذا الوضع ليثبت امام هزات داخلية او مطامع خارجية مستجدة .

فان حالة التشرذم في ساحل الخليج الذي يعيش فيه سكان قلائل نسبيا ويفيض بثروات هائله ما كانت الا نتيجة المصالح البريطانية منذ بدايـــة القرن التاسع عشر . ولولا هذه المصالح لكانت خارطة الخليج السياسية غير ما هي عليه . فقد عملت السياسة البريطانية بالاضافة الى تفتيت المنطقة على تجميد ديناميكيتها السياسية وتطورها بحيث باتت غير قادرة على تدبيـــر شؤونها في مواجهة هزات سياسية واجتماعيه داخلية او في الوقوف فـــي وجه تدخل خارجي .

كان واضحا للجميع انه لا بديل عن اتحاد امارات الخليج لمعالجة كـــل هذه المشاكل . والاعلان البريطاني عن نية الانسحاب العسكري اعطى الضوء الاخضر للاستقلال والوحدة اذا كان هنالك من يريد الاستقلال والوحدة . كانت الفرصة مناسبة لمن يريد اهتبالها في الخليج . وبدأت التحركات في هذا الاتجاه . في ١٨ شباط ـ فبراير بثت اذاعة(صوت الساحل)من الشارقةـــوهي اذاعة بريطانية كانت تبث من معسكر بثت بيانا مشتركا موقعا من حاكم ابو

ظبي الشيخ زايد بن سلطان وحاكم دبي الشيخ راشد بن سعيد ال مكتوم يعلنان فيه قيام اتحاد فيدرالي بين امارتيهما ويدعوان الامارات « المتصالحة » الخمس الباقية الى دخول ذلك الاتحاد .

ودعا البيان حاكمي قطر والبحرين الى التداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق على عمل موحد يكفل سلامتها واستقرارها .

تحركت قطر فورا وارسلت مبعوثين الى الحكام تقترح اعلان اتحاد يضم الامارات التسع في الخليج . وبعد اسبوع اي في ٢٥ شباط — فبراير اجتمع حكام الامارات التسع لمدة ثلاثة ايام في دبي واعلنوا « اتفاقية دبي » التي ينشأ بموجبها « اتحاد الامارات العربية » ويبدأ العمل بموجب تلك الاتفاقية ابتداء من ٣٠ اذار مارس من نفس العام ١٩٦٨ .

كان الشيخ خليفة بن حمد صاحب فكرة اتفاقية دبي . وقد عملت تلك الاتفاقيه على ولاده مولود « تساعي » لا « سباعي » .وفي ٧ تموز — يوليو اجمع حكام الامارات التسع على اختيار الشيخ خليفة رئيسا للمجلس الاتحادي المؤقت الذي يمثل السلطة التنفيذية للاتحاد والذي هو عبارة عن مجلس وزراء اتحادي .

كان الشيخ خليفة يدرك محاذير المهمة التي يتصدى لها كما يدرك تحدياتها الكبيرة . فالمنصب الموكل اليه يعطيه الفرصة لان يوسع تجربة قطر الداخلية. تلك التجربة التي كانت نواتها وزارة المعارف كما ذكرنا ثم اتسعت بتوليه السلطات التنفيذية لتشمل بناء المؤسسات . وان نقل تلك التجربة على نطاق اوسع لم يكن ليتم الا بامساكه فعلا لا قولا بجميع الخيوط والمفاتيح والمقاليد على اسس دستورية مضمونة . بدون ذلك يصبح هذا المنصب كمينا اكبر من اي كمين واجهه حتى الان . فهو يجعله يتفرغ لمنصب غير حقيقي مهملا قاعدته الصلبة التي انفق السنين في بنائها في قطر ويصبح بعد ذلك لا هو في هذا فعلا ولا ذاك .

من هنا كان اصراره على ضرورة ان يسبق الفعل الحقيقي القول بتكوين المؤسسات الاتحادية التي نصت عليها اتفاقية دبي. فان تكوين هذه المؤسسات كفيل بأن يجعل الارض التي يمشي عليها الاتحاد صلبة لا تهبط تحت قدميه . وفيما عدا ذلك فان اية بيانات فضفاضة واية دساتير براقة مهما لمعت فيها اسماء المناصب تبقى « اسماء مملكة في غير موضعها » .

جاء الامتحان في الاجتماع الاول للمجلس الاعلى للاتحاد وهو المجلس الذي يتكون من الحكام . فقد اجتمعوا في ابو ظبي في ٢٥ ايار — مايو للسير قدما بالاتحاد . ولكن مستشاريهم الذين اجتمعوا قبل ذلك باسبوع في ابو ظبي كانوا قد اختلفوا على ما اذا كان الميثاق الكامل والدائم للاتحاد — اي الدستور — يجب ان يأتي اولا ام يأتي بناء المؤسسات الاتحادية اولا ؟

يبدو منطقيا ان اية دولة تحتاج الى دستور وان الدستور هو الذي يضع المبادىء والاسس التي تقوم عليها مؤسسات الدولة . ولكن الدستور ، اي دستور ، لا يكتسب قيمته وفاعليته الا من امكانية تطبيقه ويجب لذلك ان يكون

انعكاسا لاوضاع قائمة فعلا لا صورة جميلة تختلف عن الاوضاع التي تحتها . والدستور الحقيقي ، لا يتميز بطوله وبعدد ما فيه من بنود وكلمات ومثل، بقدر ما يكون تعبيرا عن الواقع واعلانا عن اتجاه ورغبات وبقدر ما يتيح التحرك من الواقع نحو الامثل .

على هذا الاساس كانت اتفاقية دبي اقرب شيء الى الدستور وان لم تكن دستورا ، وكانت ميثاقا وان لم تكن ميثاقا كاملاً . وقد ارتضاها الحكام وينبغي الان السير بموجبها لتأسيس المؤسسات الاتحادية . وبعد انشاء المؤسسات الاتحادية يمكن وضع الميثاق الكامل .. كان هذا هو موقف قطر .

لم يتفق الحكام في اجتماعهم الاول على هذا الموضوع . لقد فشلوا في ان يعتبروا اتفاقية دبي ميثاقا للاتحاد واخذ بعضهم يطالب بدستور كامل للاتحاد اولا قبل المضي في انشاء المؤسسات الاتحاديه .

خلال ذلك الاجتماع الاول في ابوظبي للمجلس الاعلى للاتحاد وزع منشور على شكل « نداء لمن يهمه الامر » بتوقيع وهمي هو توقيع « شعب الخليج وعمان » وان نظرة الى ذلك المنشور الساذج لتكشف بسرعة عن كاتبيه وموزعيه كما تاتي ضوءا على بعض الاسبا بالخارجية وراء المطالبة بدستور كامل قبل المضي في ربط الاتحاد وتوثيقه بالمؤسسات اذ يبدو ان المقصود بالدستور الكامل اولا هو احتواءه على ضمانات مسبقة لبعض المصالح التي كان يخشى عليها من الضياع اذا ما اعيد اطلاق ديناميكية الخليج الاصلية التي اطفئت واحبطت خلال القرنين الماضيين .

قال المنشور : « نداء الى من يهمه الامر »

« لقد عانى الشعب العربي في الخليج العربي وعمان من تطورات الوضع وعلق عليه امالا كبيرة على مؤتمرات حكام الامارات وتفاءل له بالنجاح والتوفيق ، الا انه ويا للاسف لم تسفر هذه المؤتمرات حتى الان الا عن خيبة امل . ان الشعب العربي في الخليج يؤمن بالوحدة ايمانا كاملا بأن الامة العربية امة واحدة ومصير واحد . وشعب امارتي قطر والبحرين جزء من الامة العربية ونرحب بالوحدة والاتحاد معا .

« اما بالنسبة لعمان شماله وجنوبه فان الشعب يختار مطالبه العادلة الواضحة وهي كما يلي :

١ ــ ضرورة توحيد المنطقة في دولة واحدة قوية الاركان .

٢ ــ تكوين مجلس لرئاسة الدولة وتعيين من تتصف فيه الاخلاق الحسنة.

٣ ــ تكوين مجلس من ابناء الوطن المخلصين الذين يرضى عنهم الشعب ويؤدون الامانة باخلاص وشرف وذلك تمهيدا للانتخابات العامة في البلاد .

٤ ــ توحيد الاقتصاد والدفاع لهذه الدولة .

٥ ــ تعتبر قوة ساحل عمان نواة لجيش هذه الدولة والعمل السريع على تقويمه بجميع ما يحتاج له من المعدات الحديثة التي تؤمن سلامة الوطن وحفظه .

٦ ــ ان شعب الخليج هو وحده المسؤول الاول والاخير عن حماية مصالحه ومصالح بريطانيا المشتركة وانه لا توجد قوة بامكانها حماية هذه المصالح من غـــير الشعب .

٧ ــ يا حكام امارات الخليج نناشدكم باسم الضمير الانساني ان تجعلوا مصلحة الوطن أمام اعينكم وقبل كـــل شيء ، وان يكون اجتماعكم حاسما ومثمرا بالنسبة لمصلحة الوطن .

ان الشعب لا يريد ان تقعوا في الخطأ ، والعاقل من اتعظ بغيره . انه معكم ما دمتم معه ، ومع مصالح وطنه التي هي فوق كل شيء ، ويعتبر كل من يقف حجر عثرة امام الوحدة لمصلحته الخاصة عدوا للشعب والوطن وسيحاسب .

ان الشعب لا يقبل المساومة على حريته وكرامته وحريةاراضيه،كما انه يعلم علم اليقين عـــن الاشخاص الذين اتصلوا بالسعودية . ان هؤلاء لا يمثلون ارادة الشعب وانما يمثلون مصلحتهم الخاصة .

لهذا يجدر بالحكومة السعودية ان تكف عن التعامل مع هؤلاء الافراد القلة وتكسب ود اخواتها في منطقة الخليج وعمان وتتعاون معهم لمـــا فيه مصلحة الشعبين في جو تسوده المحبة والسلام .

ان الشعب في هذه المنطقة على علم تام بهذه المساومات والعراقيل التي وقفت في تكوين دولـــة واحدة ، كـــان مصدرهـــا الاساسي الحكومة البريطانية وهي المسؤولة الاولى والاخيرة عن هذه الخلافات التي وجدت بين الامراء وعرقلت تكوين الوحدة المنشودة بين شعوب هذه المنطقة .

ان شعب هذه المنطقة لا يريد ان يتكرر ما حدث في جنوبنا العربي » .

امضـــــاء

شعب الخليج وعمان



لعل المرء لا يحتاج الى ذكاء شديد ليدرك هوية هذا المنشور البريطاني الذي يكشف سريعا عن وجهه بلغته الركيكة وعنوانه وتوقيعه وربطه بين مصالح شعب الخليج ومصالح بريطانيا بصورة لا فكاك منها .

غير ان قراءة اكثر ذكاء للمنشور تكشف عن حقيقة الاهداف والاساليب البريطانية وموقف بريطانيا من فكرة الاتحاد وتكوينه . وهي — اي بريطانيا — في هذا كله لم تتخلص كليا من سياسة القرن التاسع عشر في الخليج وان كانت تأمل في وضع السياسة الجديدة على اسس تتفق والقرن العشرين .. فهي تؤيد وحدة في الخليج قائمة على اسس الديمقراطية البرلمانية من دستور وانتخابات وغير ذلك مما يوفر ضمانات للاوضاع الجديدة افضل من ارتكاز الحكم على الشيوخ والامراء . والديمقراطية البرلمانية كما حدث في الكويت ، تحول دون اتجاهات التطرف وتفتح سوقا بقوة شرائية ضخمة يبقى فيها المركز الرئيسي للصناعات البريطانية كما تبقى بريطانيا في المركز السياسي الاول من حيث العلاقة مع الدولة الجديدة . ويشترط لذلك ان لا تقترب هذه الدولة اقترابا شديدا من اية قوة اكبر في المنطقه او خارجها . ولذلك يحذر المنشور اولئك الذين « اتصلوا بالسعودية » كما ينصح السعودية بالكف عن التعامل معهم .

قضية دستور الاتحاد اذن لم تكن ذات جوانب داخلية تتصل بحكام الامارات وحدهم وانما كانت ذات ابعاد خارجية . ومن السهل في مثل هذه الحالات ان تلبس المصالح الاجنبية ، كما حدث في مناطق عديدة من العالم العربي ، لباس الوطنية والتقدمية « ومنح الشعب حقوقه » . ومن السهل في مثل هذه الحالة اظهار بعض الحكام وكأنهم رجعيون متخلفون يرفضون اشراك الشعب في الحكم لمجرد انهم يرفضون الفكرة الغربية للديمقراطية والحقوق ، او يرفضون القفز اليها قفزا دون اعداد متدرج مسبق .

بعد فشل الاجتماع الاول للحكام ، عمدت قطر بتوجيه من الشيخ خليفة الى استشارة استاذين في القانون الدولي في اولوية الدستور او انشاء المؤسسات الاتحادية . وكان احد هذين الاستاذين الدكتور وحيد رأفت خبير القانون الدستوري لدى دولة الكويت والثاني البروفسور شارل روسو استاذ القانون الدولي في جامعة باريس . وجاءت وجهة نظر الاستاذين تؤيد وجهة نظر قطر من وجوب المضي في انشاء المؤسسات الاتحادية اولا اذ ان انشاءها لم يكن مشروطا في اتفاقية دبي بوضع الميثاق الكامل والدائم اولا .

في هذا الجو بدأت بعض الاوساط البريطانية تطرح بوضوح تفضيلها لاتحاد امارات سبع بدون قطر والبحرين . واشتدت مطالبة ايران بالبحرين كوسيلة للضغط والتأثير على فكرة الاتحاد التساعي . وانطلقت اتهامات نحو السعودية فحواها ان علاقتها الوثيقة بقطر تجعل تأييدها للاتحاد التساعي قائما على اسباب مصلحية ذاتية لمطالبها من ابو ظبي بواحة البريمي . وكانت

هذه الاتهامات تستهدف وضع السعودية في مأزق بمطالبتها من طرف خفي بالتنازل عن مطالبتها بواحة البريمي لكي تثبت حسن نواياها بالنسبة للاتحاد التساعي .

وهنا نشأت فكرة الوساطة الكويتية بتأييد واضح من السعودية .

وربما اختيرت الكويت لهذه الوساطة بسبب كونها ذات تجربة ناجحه في الديمقراطية البرلمانية والدستورية من جهة ولتأييدها لفكرة الاتحاد التساعي من جهة اخرى ولذلك يفترض ان يكون موقفها مرضيا للطرفين . وحمل وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الاحمد رسائل خاصة من أمير دولة الكويت الى حكام الخليج . وكانت جهوده واضحة الى جانب تنفيذ اتفاقية دبي او بعضها وعدم انتظار الميثاق الدائم و الكامل .

حققت وساطة الوزير الكويتي نجاحا محدودا اذ تم التفاهم على جدول اعمال للمجلس الاعلى عند استئناف جلساته في اول تموز – يوليو في ابو ظبي . وتم الاتفاق على مشروعات قرارات ثلاثة الا وهي تشكيل المجلس الاتحادي وتعيين اول رئيس للاتحاد واختيار مقر له .

الا ان هذه القرارات ذاتها قد خففت وميعت وتأخر اجتماع الحكام الى ٦ تموز – يوليو بدلا من اول الشهر واتفق على أن يكون المجلس الاتحادي « مؤقتا » ورئيس المجلس الاعلى رئيس جلسات لا اكثر وتركت للمجلس الاعلى والمجلس الاتحادي المؤقت حرية اختيار مكان انعقاد كل منهما . وعاد كل شيء عائما بفضل الايدي الخفية التي كانت تعمل على تفشيل فكرة الاتحاد التساعي .

في اجتماع الحكام في ابو ظبي ، بدلا من اختيار رئيس للاتحاد او رئيس للمجلس الاعلى تم الاتفاق على اختيار رئيس الجلسات للمجلس الاعلى بالتناوب واختيرت لجان مختلفة لدراسة مشاريع تنفيذ بقية البنود كالعلم والنشيد وتوحيد النقد والبريد واصدار جريدة رسمية . واختير اعضاء مجلس اتحادي مؤقت برئاسة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني . ثم دخل الاتحاد في متاهة مشروع اعداد « الميثاق الكامل والدائم » اياه ، فاختير الدكتور عبد الرزاق السنهوري الخبير المصري لهذه المهمة .

اذا كانت مهمة رئيس المجلس الاعلى قد تحولت من رئيس للاتحاد الى رئيس جلسات يشرف على تدوين المحاضر وادارة الجلسات فان الشيخ خليفة الذي اختير رئيسا للمجلس الاتحادي المؤقت قد حاول أن يجعل من هذا المجلس مجلسا وزاريا للاتحاد يمارس مهمات فعلية . وهكذا بدأت مهمة صعبة وشاقة انتهت بعد ذلك الى الفشل . فالواقع أن اجتماع ابو ظبي قد اخفق في تحقيق الاتحاد التساعي ونجح في دفن اتفاقية دبي بوضعه « الميثاق الكامل والدائم » قبل اختيار رئيس الاتحاد وتعيين العاصمة .

وقد واجه الخبير الدستوري ، الدكتور وحيد رأفت الذي حل محل

السنهوري ، في محاولته وضع « الميثاق الكامل والدائم » المشكلة الاساسية وهي المشكلة السياسية . فلم يستطع الخبير ان يفهم هذا الوضع المقلوب الذي بدلا من ان يكون فيه الدستور ناشئا من وضع قائم او تعبيرا عمـــا يجب ان يقوم فانه كان عليه ان يفترض اشياء غير موجودة ولم تتخذ بشأنها قرارات سياسية . وبدلا من ان يضع بنودا في الدستور المقترح ، اخذ الخبير لدستوري يضع اسئلة واستيضاحات واستفسارات بلغ عددها ١٣٢ سؤالا .

اتفق الحكام على انتداب مندوبين من البحرين وقطر وابو ظبي للاجابة على استيضاحات الخبير الدستوري التي لا يمكن ان يجيب عليها الا الحكام انفسهم او اتفاقية دبي التي لم تعد تجيب . كان ثمة مثلا سؤال يتعلق بالبحرين التي كانت تطالب بها ايران . سؤال سياسي عويص هو ما اذا كان الاتحاد التساعي الذي يقوم على حماية الارض العربية في الخليج سيحمي البحرين وهو لم يقم حقيقة بعد ؟

ربما ان الشيخ خليفة قد ادرك جوهر القضايا المطروحة في وقت مبكر وراى الخيارات المتوافرة . وكانت حماسته تزداد لفكرة الاتحاد التساعي كلما ازداد وضوح الفشل الذي كان يواجهها . فقد دابت لجان المجلس الاتحادي المؤقت المختلفة التي عملت تحت رئاسته على انجاز اعمالها ودراساتهـــا وتوصياتها كما لو ان نجاح الاتحاد كان اقرب من فشله . وبالرغم من انـــه بات واضحا ان الوقت يضيع في حديث عن اتحاد تساعي يمكن ان لا يقـــوم لا عن اتحاد قائم فعلا فان الشيخ خليفة واصل العمل على جبهتين احداهما جبهة الاتحاد وكأنه سيقوم فعلا والثانية جبهة استكمال مقومات استقلال قطر . وعلى العكس مما قد يبدو للبعض فانه لم يكن يرى تعارضا او تناقضا فـــي الامرين .

هنا تبرز الخصلة البراغماتيه او العملية في خصال الشيخ خليفة لتكون عنصرا هاما من عناصر تكوين قطر السياسي . فالشيخ خليفة الذي لا يحب الفشل راح يستكمل بسرعة مقومات استقلال قطر ويعرض بالنجاح في هذا المجال عن الفشل الذي يمكن ان تصطدم به فكرة الاتحاد . بل انه ربما قد عمل على الاستفادة من الظروف السائدة للحصول على اكبر قدر يمكن الحصول عليه لقطر من الاستقلال والسيادة . فموازين القوى قد انفلتت فجاة فـــي الخليج في مرحلة انشاء موازين جديدة . واذا كانت قطر لا تستطيع تكويـــن مركز ثقل تنضم اليه فانها على الاقل تستطيع ان تستفيد من محصلة القوى بالوقوف في مركز التوازن .

هكذا كانت الصورة السياسية في الخليج عام ١٩٦٨ تعيد الى الاذهان بالصورة التي رآها مؤسس استقلال قطر الشيخ قاسم بن حمد ال ثاني في اواخر القرن التاسع عشر . فمثلما سعى الشيخ قاسم الى الاستفادة مـــن التناقضات الدولية والاقليمية لانتزاع استقلال قطر كذلك سعى الشيـــــخ خليفة بن حمد ... ففي كانون الاول ـــ ديسمبر من عام ١٩٦٨ قام بزيارة الى ايران بدعوة من الشاه حصل فيها على تأكيد المعاملة بالند بين البلدين

ورسم الحدود البحرية بين البلدين في وسط الخليج . وبذلك حققت قطر التكافؤ في المعاملة مع اكبر دولتين على ضفتي الخليج وهما السعودية وايران. وسارعت بالانضمام الى معظم وكالات الامم المتحدة والوكالات الدولية واقامت علاقات حسنة مع جميع الجيران . وما ان دخل عام ١٩٦٩ حتى كانت قطر مستعدة لان تعمل باندفاعة اكبر نحو الاتحاد التساعي بلا خوف على مستقبلها الذي امنته .

قام الشيخ خليفة بمساع حميدة بين مختلف الامارات لتسوية الامور بين ابو ظبي ودبي وراس الخيمة فيما يتعلق بمشاكل تخطيط الحدود بين ابو ظبي ودبي وحل مشكلة قبيلة « الخواطر » بين ابو ظبي وراس الخيمة . وكان يقدر ان حل هذه المشاكل وازالة هذه الرواسب بين الامارات جميعا يمكن ان يعمل لصالح الاتحاد بازالة عناصر الخوف وعدم الثقة .

وقبل اجتماع المجلس للاتحاد في الدوحة في ١٠ ايار – مايو ، اجرى الشيخ خليفة اتصالات مسبقة مع الشيخ زايد حاكم ابو ظبي والشيخ عيسى حاكم البحرين للحصول على موافقة بتحويل المجلس الاتحادي المؤقت الى مجلس وزراء للاتحاد واختيار رئيس ونائب رئيس للاتحاد وابرام دستور مؤقت بدلا من الدستور الدائم والختيار عاصمة واصدار جميع قرارات المجلس الاتحادي بقوانين . واهم من ذلك كله اتخاذ مبادرة للحديث مع بريطانيا حول انهاء معاهداتها القديمة للحمايه في الخليج .

استعجال قطر بتاليف حكومة اتحادية لانهاء معاهدات الحماية في الخليج ردت عليه بريطانيا بأن هذه المعاهدات معقودة فرديا مع اشخاص لا مع امارات او دول . وهذا يعني ان الامارات تستطيع التفاوض افراديًا مع بريطانيا .واجتماع الدوحةلم يسفر عن اي شيء حاسم .

اجتمع المجلس الاعلى مرة اخرى في ابو ظبي في ٢١ تشرين الاول – اكتوبر من نفس العام ١٩٦٩ . ونجح الاجتماع هذه المرة في انتخاب رئيس للاتحاد هو الشيخ زايد بن سلطان حاكم ابو ظبي ونائب له الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي واختيار الشيخخليفة بن حمد رئيس وزراءللاتحاد، وكادت الامور ان تصل الى خواتيمها المرجوة فجاة حينما حضر المعتمد السياسي البريطاني في ابو ظبي جيمز ترودويل الى قاعة اجتماع الحكام وطلب تلاوة بيان من المقيم البريطاني العام في البحرين السير ستيوارت كروفورد ونشأ خلاف بين الحكام حول دخول المعتمد السياسي البريطاني عليهم وتلاوته بيانا بغض النظر عما احتوى عليه ذلك البيان . وغضب بعض الحكام وغادروا الاجتماع خائبين .ورأى الشيخ زايد ان يدعو الى اجتماع اخر بعد اسبوعين لاستكمال الاجتماع ، الا انه لم يحضر بعد اسبوعين سوى خمس امارات .

مرت سنة كاملة على ذلك دون اي شيء ذكر بالنسبة للاتحاد . عام ١٩٧٠ كان حافلا بالتطورات . في نيسان – ابريل سقطت مطالبة ايران بالبحرين بعد استفتاء مرتب من الامم المتحدة . وفي حزيران – يونيو سقط

حزب العمال الحاكم في بريطانيا وحل محله حزب المحافظين . وفي اب ـ اغسطس سقط سلطان مسقط وعمان سعيد بن تيمور بانقلاب وحل محله ابنه قابوس . وفي ايلول ـ سبتمبر وقعت احداث ايلول الدامية في الاردن وتوفي جمال عبد الناصر في مصر .

حزب المحافظين في بريطانيا كان قد عارض الانسحاب العسكري في الخليج ووعد بالغائه حين وصوله الى الحكم . ولكنه حينما وصل الى الحكم وجد أن مياها كثيرة قد مرت تحت الجسور لا يمكن اعادتها فعين السيد وليام لوس لتطبيق سياسة بريطانية جديدة . وقيل ان حزب المحافظين اخذ يؤيد اتحادا تساعيا لكي يستطيع ان يقف على قدميه في وجه المطامع الدولية المتنامية والمتجهة كلها الى الخليج . ولكن الوقت كان متأخرا .

وفي الثاني من نيسان ـ ابريل ١٩٧٠ اتخذت قطر خطوة متقدمة بين الامارات في سلسلة خطواتها نحو السيادة فاعلنت دستورا مؤقتا تحت اسم النظام الاساسي المؤقت بعد خطوة مرحلية نحو اشراك المواطنين في الحكم .

جاء اعلان النظام الاساسي المؤقت في قطر بطريقة حاسمة وسريعة قياسا ببطء تطورات الاوضاع في الخليج في حينه . فلم يكن احد في المنطقة يتوقع ان تكون قطر اول من يعلن دستورا او شبه دستور في البلاد بعد ان كانت تتهم بأنها لا توافق على الفكرة الديمقراطية .

قبل اربع وعشرين ساعة من اعلان النظام الاساسي المؤقت في قطر ، ارسل الشيخ خليفة مبعوثين الى الامارات لابلاغ الحكام بالخطوة التي اعترفت قطر بالاقدام عليها . وكان الخبر مفاجأة للجميع لم يستعدوا لها فسجلت قطر عليهم سبقا في اتخاذ اول خطوة دستوريه نحو اشراك الشعب في الحكم في تاريخ الخليج العربي ما عدا الكويت .

ولم يأت النظام الاساسي المؤقت خارج الاطار الاتحادي بل ذكر ان « قطر دولة عربية مستقلة وهي جزء من اتحاد الامارات العربية » . الا ان هذه المادة قد عدلت فيما بعد حينما لم يقم الاتحاد التساعي لتقول : « قطر دولة عربية مستقلة ذات سيادة ونظامها ديمقراطي وشعبها جزء من الامة العربية » .

وقد حمل اعلان النظام الاساسي المؤقت في قطر عدة مغاز ذات اهمية . فهو باعلانه أن قطر دولة عربية مستقلة قبل حوالي عام ونصف من اعلان استقلال قطر رسميا كان في الحقيقة بمثابة اعلان لاستقلال قطر من جانب واحد والغاء قيود وشروط معاهدة الحماية البريطانية . وكان ذلك ايضا بمثابة دليل ونموذج لما يمكن ان تفعله الامارات الاخرى اذا هي شاءت ذلك . وكان اعلان قطر للنظام السياسي المؤقت جزءا من الخطوات التي تعتبر دليلا عمليا على كيفية ازالة العوائق والاشواك من طريق الاستقلال والاتحاد وبرهانا على أن الاتحاد لا يتعارض واستقلال الامارات بل ان أحدهما يكمل الاخر . ثم ان ذلك النظام الاساسي كان خطوة اصلاحية في نظام الحكم يكرس

دستوريا الاعتراف لكل المواطنين بالمساواة امام القانون .
يتألف النظام الاساسي المؤقت من ٧٧ مادة موزعة على خمسة ابواب هي نظام الحكومة والمبادىء الاساسية الموجهة لسياسة الدولة والحقوق العامة والواجبات والصلاحيات ومبادىء عامة انتقالية .
ومن المبادىء الاساسية الموجهة لسياسة الدولة ان الدولة « تؤمن باخوة جميع العرب وتوجه كل جهودها لتدعيم روابط التضامن مع الدول العربية الشقيقة في خدمة القضايا والمصالح العربية وهي تدعم دعما كاملا جامعة الدول العربية وان سياستها الخارجية تهدف الى تقوية روابط الصداقة مع الدول والشعوب المحبة للسلام عموما على اساس من الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وتلتزم الدولة بمبادىء ميثاق الامم المتحدة » .
وقد ضمن هذا النظام التعليم كحق من حقوق المواطن على الدولة كما تعهدت الدولة بموجبه بأن تجعل التعليم الزاميا ومجانيا في جميع مراحله للمواطنين . ومن المبادىء المهمة في هذا النظام المساواة التامة بين جميع الافراد في الحقوق والواجبات دون تمييز على أساس العنصر او الجنس او الدين . كما اتاح النظام الاساسي المجال لمجلس شورى من اصحاب الكفايات في البلد يعاون الامير في اقتراح القوانين .
لا يمكن القول طبعا ان هذا النظام قد احدث طفرة نحو ممارسات ديمقراطية مثالية واتاح للشعب فورا المشاركة في الحكم على نمط الديمقراطيات البرلمانية . ولكنه في اطار الوضع التاريخي والاجتماعي في الخليج يعد خطوة مهمة تتناسب ومرحلة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي بلغتها قوى المجتمع في قطر . وقد قال الشيخ خليفة في اكثر من مناسبة انه لا يؤمن بسياسة « التقفيز » وانما هو يؤمن بالتطور الهادىء الثابت والمستمر . كما اعلن عن فلسفته في هذا المجال بأن التطور السياسي يتبع التطور الاقتصادي والاجتماعي ولا يسبق عليهما . وقال : « ان الديمقراطية هي سلاح متقدم مثل سائر الاسلحة وهو ذو حدين فاذا لم تتقن استعماله فانه يرجع عليك ويؤذيك اكثر مما يفيدك » .
النظام الاساسي المؤقت كان يهدف نحو الديمقراطية ولكن ليس بطريقة التقفيز والانتخابات خصوصا بعدما اتضح من مساوىء استغلال الانتخابات لغير صالح الشعب في المجتمعات التي لم تترسخ فيها تقاليد الانتخابات البرلمانية . « وضمانا لحسن ممارسة الحريات والحقوق العامة في هذه المرحلة الانتقالية التجريبية » ، كما جاء في النظام الاساسي اعطى مجلس الشورى الطابع الاستشاري ليعبر عن رأيه في شكل توصيات للحكومة . يبقى هناك شيء غير مكتوب هو الذي يجعل الاخذ بالمشورة امرا ضروريا او غير ضروري الا وهو الراي العام وحرص الحكومة على مصلحة البلد ومقدار نضج المشورة .

بعد اعلان النظام الاساسي المؤقت في دولة قطر لم يحدث شيء للاتحاد التساعي سوى دفنــه .. فحينما اجتمع المجلس الاعلى للاتحاد في تشرين اول – اكتوبر ١٩٧٠ في ابو ظبي ، توفيت والدة الشيخ زايد فشيعها الجميع الى مثواها الأخير . وشعر الحكام وهـم يسيرون في جنازتها كمـا لو انهم يسيرون في جنازة الاتحاد التساعي .

في ٢٩ أيار – مايو ١٩٧٠ ، اي بعد اقل من شهرين من اعلان النظام الاساسي المؤقت شكلت في قطر اول وزارة كاملة طبقا لاحكام النظام الاساسي وتولى الشيخ خليفة منصب رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية والبترول .

وفي أول ايلول – سبتمبر ١٩٧١ وجــه الشيخ خليفة خطابـا الى شعب قطر اعلن فيــه عن استقلال قطر منهيا بذلك علاقاتها التعاهدية مع بريطانيا وملغيا معاهدة سنة ١٩١٦ ومبشرا بقيــام دولة قطر ذات السيادة التامة والسلطان الكامل على كل مقدراتها في الداخل والخارج على السواء .

في هذه اللحظة ينشأ سؤال ضروري الا وهو اين حاكم قطر الشيخ احمد بن على آل ثاني الذي تولى الحكم عام ١٩٦٠ بينما تولى الشيــخ خليفة منصب نائب الحاكم وولي العهد . ففي كل ما ذكرناه لم يرد له ذكر كثير . فماذا كان دوره وكيف سارت العلاقة خلال كل هذه السنوات بين قطبــي السلطة ؟ .

تولى الشيخ خليفة كما ذكرنا جميع السلطات التنفيذية تقريبا . منذ عــام ١٩٦٠ . ولم يأخذها كلها دفعة واحدة وانما هو انطلق في لمها بعد تناثــر وتجميعها وبلورتها في يديه انطلاقا من التفاهم الذي قام بينه وبين ابن عمــه الشيخ احمد على اساس ان يقوم الشيخ خليفة بالعمل ولا يتم اي امر بدون موافقة الحاكم الذي تصدر باسمه المراسيم والقوانين .

وكان هذا الترتيب مناسبا للطرفين ولمصلحة البلد فكان الحاكم اشبه مـا يكون برئيس دولةيشرف ولا يحكممثلملكة بريطانيا مع الفارق والاختلاف بين النظامين . فلم يكن هذا الترتيب محددا من الناحية الدستورية وانما كـان ناشئا من الاتفاق ومن مزاج الشيخ احمد ذاته الذي كان في معظم الحــال يستمتع بمظاهر الحكم وامتيازاته دون ان يتحمل شيئا اساسيا من اعبائــه الحقيقية التي كانت تقع على كاهل الشيخ خليفة .

وكان الشيخ خليفة في كل عمله يحرص على ما للحاكم من هيبة وسمعــة واحترام واولويات بالاضافة الى حبه الشخصي له ، فلم ينشأ خلال كل هذه الفترة اي تناقض كبير ولم ير الشعب فيهما الا واحد يكمل الاخر . فتلاشت مراكز القوى وتسلسلت المسؤوليات واتصلت بنظام لا سبيل فيه ولا مكــان للاسافين بين الرجلين .وظلت هذه الحال سائدة تقريبا الى ان بدأ مركز قوة جديد ينمو ويكبر من داخل بيت الحاكم نفسه في شخص ولده الاكبر الشيــخ عبد العزيز بن احمد الذي كان في الوقت ذاته ابن اخت الشيخ خليفة .

كان الشيخ عبد العزيز بن احمد « مدللا » يحصل على كل ما يريد بدون اي عناء بفضل الثروة الضخمة التي تجمعت لوالده الحاكم والتي كانت تبلغ ربع دخل البلاد من البترول ونصف عائدات الجمارك . وبالاضافة الى قلة خبرته فقد كان بالغ الطموح تراوده افكار بالوصول الى الحكم عن اقصر طريـــق . ولعل انه كان يفكر جديا ويحث والده على نفس الطريقة التي تنازل بهـــا الشيخ علي عن الحكم عام ١٩٦٠ للشيخ احمد متجاوزا ولي العهد الشرعي الشيخ خليفة . وبالرغم من ان الشيخ احمد كان يملك من الوعي والادراك ما يجعله لا يتجاوب مع هذه الرغبات بسبب تغير الظروف والاحوال الا انه لم يكن ليردع ولده الردع الكافي ويرده الى صوابه . كان ينزل عند رغباته في كل شيء تقريبا ويحاول استرضاءه . وقد كسب له مكانا في اول مجلس وزراء يشكل في البلاد بالاتفاق مع الشيخ خليفة على تعيينه في وزارة الصحة لعل ان شهوة الحكم عند الشيخ عبد العزيز تتكيف عن طريق المشاركة فيه .

غير ان الشيخ عبد العزيز بدلا من ان يعتدل ويتعاون فقد ذهب الى الغلو والتمادي واتباع تكتيكات تخريبية في عرقلة اعمال الحكومة بالضغط على ابيه في تأخير توقيع المراسيم العاجلة وعدم توقيع بعض المراسيم الاخرى . لعله كان في ذلك يحرض والده على ان يكون اكثر ممارسة لصلاحياتـــه كحاكم . وبدأ ينشأ نتيجة لذلك ما سمي « بالازدواجية » التي باتت تهدد وتيرة التقدم والاصلاح في قطر .

المرسوم الوحيد الذي لم يكن يحتمل التأجيل في توقيعه او التلكؤ كان مرسوم اعلان الاستقلال . كان الحاكم احمد يصطاف في قصره على شاطيء بحيـرة ليمان في جنيف . وجاءت لحظة اعلان الاستقلال وانهاء المعاهدة البريطانية في اول سبتمبر . وتخلف الشيخ احمد بتأثير ولده الشيخ عبد العزيز عن الحضور الى الدوحة لتوقيع الوثائق واعلان الاستقلال . طلب التأجيل الى حيـــن انتهائه من اصطيافه . وذهب اليه الرسل من لدن ولي عهده ونائبه الشيـــخ خليفة يحملون الرجاء تلو الرجاء بأن يعدل عن رايه . ولكنه اصر ولم يفعل . اخيرا وجد الشيخ خليفة مخرجامن المازق باعتبار قصر الامير في جنيف ارضا قطرية مثل ارض اي سفارة . وحملت الوثائق الى الحاكم في جنيف حيـــث وقعها في قصره . وكان الذي اعلن استقلال دولة قطر من عاصمتها الدوحـــة هو الشيخ خليفة بن حمد .

بعد ذلك بحوالي خمسة اشهر ، اي في شباط — فبراير ١٩٧٢ اختـــار الشيخ عبد العزيز بن احمد ان يدفع بالامور الى درجة التأزيم القصوى .وكان الحاكم الشيخ احمد غائبا في رحلة صيد في ايران . واتصل به الشيخ خليفة يرجوه بالحضور لكي يسيطر على اعمال ولده الذي راح يتحرك ويتصـــل بالمسؤولين على اساس انه سيتولى على الحكم في غيبة ابيه . واخذ وجوه الاسرة الحاكمة واهل الراي والمكانة يتقاطرون على الشيخ خليفة ويرجونه ان

يضع حدا لهذه الامور . فالمسألة لم تعد مسألة فرد واحد ونزوات وانمـــا صارت تتعلق بمستقبل البلد . قالوا له ان التردد لن يكون في مصلحة قطر او مصلحة الخليج الذي صار يستقطب اهتمام العالم . وكل حدث فيه مهما كان لا بد وان يثير مضاعفات دولية لا حصر لها .

الشيخ خليفة ترك المسألة لكي تحل نفسها بعودة الشيخ احمد او بعودة الشيخ عبد العزيز الى هدوئه . ولكن لم يحدث هذا ولا ذاك . مساء الاثنين في الحادي والعشرين من شباط ــ فبراير ١٩٧٢ وصلت الازمة الى الذروة .

في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي قطعت اذاعة « قطـــر برامجها العادية واخذت تذيع موسيقى عسكرية تدل على حالة طوارىء معلنة للمواطنين ان ينتظروا اذاعة « بيان هام الى الشعب » . وفي التاسعـــة الا خمس دقائق جاء البيان الهام من « سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني امير البلاد المعظم » :

« احمد الله الذي لا آله الا هو ... واحييكم اطيب تحية وابادلكم اخلص مشاعر الود والتقدير وبعد ...

فان الكفاح الشاق الذي خاضه الاباء والابناء لبناء وطن عصري تســوده روح الاخوة والعدالة والمساواة يشكل فصلا مشرقا في تاريخ شعبنا وجسرا مضيئا يصل حاضره المجيد بماضيه التليد .

« لقد كانت نهضة هذا البلد في كافة المجالات ثمرة من ثمار التعاون بيـــن السلطة وعناصر الشعب الذي كان يتطلع دوما الى بناء وطنه علـــى اسس صحيحة وتحرير طاقاته من كل الاغلال واحتلال المكانة التي يستحقها بيـــن الامم والشعوب » .

« غير ان هذه المسيرة الرائعة التي تصطدم بكثير من العقبات التي وضعتها في طريقنا وطريق نهضة بلدنا عناصر تجردت من المسؤولية ، ولم يكن يهمها الا جني المنافع الشخصية على حساب الوطن » .

« ولقد حاولنا يعلم الله منذ تسلمت بالبيعة ولاية العهد ورئاسة الحكومـــة ان نذلل العقبات تارة بالاقناع وتارة اخرى بالنصيحة والتوجيه ، غير ان ذلك كله كان يذهب ادراج الرياح . وكان نصحنا وارشادنا يصطدمان دائمـــا باللامبالاة والاستهتار وفقدان روح المسؤولية » .

« ولقد كان من نتيجة ذلك ان اصبح بلدنا في الفترة الاخيرة يدور في حلقـــة مفرغة . واصيب الكثير من امانينا وجهودنا لتحقيق الوثبة التي اردناهـــا لوطننا بعد الاستقلال بالجمود والضياع » .

« ازاء هذا الوضع المؤسف الذي اصبح يهدد وطننا وشعبنا باكبر الاخطار . ادركنا ان سكوتنا على ما يجري يشكل خذلانا لماضينا وحاضرنا ، وتنكـــرا لكفاح اجدادنا وتخليا عن مسؤولياتنا تجاه الوطن والشعب . ولهذا لم يكن بد لان نتحرك لتصحيح الاوضاع مؤيدين في ذلك من ابناء اسرتنا الحاكمة الذين

ساءهم ما وصلت اليه البلاد من ترد ، ومدعومين بكافة العناصر من قواتنا المسلحة التي نذرت نفسها للدفاع عن مصالح الوطن والشعب في كل الظروف يساعدنا في هذه الخطوة ابناء شعبنا الذين رافقونا من اول لحظة على درب الكفاح الطويل » .

« ايها المواطنون الاعزاء ، لقد اشرق على بلدنا الغالي هذا اليوم عهد جديد سنحرص بتأييد الله وتوفيقه على ان نجعله عهد يمن وازدهار وعدالة » .

« في الوقت الذي نشكر فيه من اعماق القلب ابناء الاسرة الحاكمة الكريمة وقواتنا المسلحة وابناء شعبنا على ما اظهروه من مشاعر التأييد لحركتنا الاصلاحية التي ما اردنا بها شيئا لانفسنا ، بل توخينا رضى الله سبحانه ومصلحة المواطنين وضمان مستقبل اجيالنا المقبلة . نسأل الله ان يعيننا على حمل الامانة واداء الرسالة وان يسدد خطانا وخطاكم لما فيه خير بلدنا وشعبنا انه ولي التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .


هذه الحركة عرفت فيما بعد باسم الحركة التصحيحية . زالت الازدواجية وخرجت القرارات والمراسيم المحبوسة : قرار بالغاء مخصصات الامير على شكلها الماضي الذي كان يبلغ كما ذكرنا ربع دخل البلاد من البترول ونصف عائدات الجمارك . وقرار بزيادة مرتبات موظفي الدولة والقوات المسلحة بنسبة عشرين بالمائة . وقرار باعفاء المواطنين من دفع باقي اقساطهم للمساكن الشعبية وقرار باعفاء « كوكرين » من منصبه في القوات المسلحة وكذلك « لوك » من قوات الشرطة واعلان بأن مجلس الشورى سيبرز الى الوجود بموجب النظام الاساسي المؤقت . واخيرا مراسيم بتعيين اول سفراء الدولة الجديدة .


وهكذا وصلت الدولة الجديدة والامير معا الى نقطة التبلور ... صورة واحدة لا يمكن فيها اخراج صورة الامير من صورة الدولة دون ان تفقد الصورة الكثير من خطوطها وملامحها والوانها ولا يمكن فيها حكاية قصة الامير بدون قصة الدولة فالقصتان متداخلتان بشكل فريد .


ولي العهد

كان من المتوقع في عام ١٩٧٢ أن يتم اختيار ولي عهد قطر الجديد بعد أن تولى الشيخ خليفة سلطاته الدستورية كأمير للبلاد ، والذين توقعوا أن يتم هذا العمل بسرعة كما يحدث بالاوتوماتيكية الدستورية التي يحدث بها في الدانيمارك او السويد مثلا لم يكونوا على معرفة باعراف قطر وتقاليدها في هذا المجال كما انهم لم يلموا بالاعتبارات الكثيرة التي تدخل في الاختيار . فمن هذه الاعتبارات أن يتريث الامير ويترك لولي العهد المنتظر أن يبرز من خلال التجربة ويبرهن على صلاحه وجدارته حتى يكون اهلا للمسؤوليات الضخمة التي يحملها عادة امير البلاد .







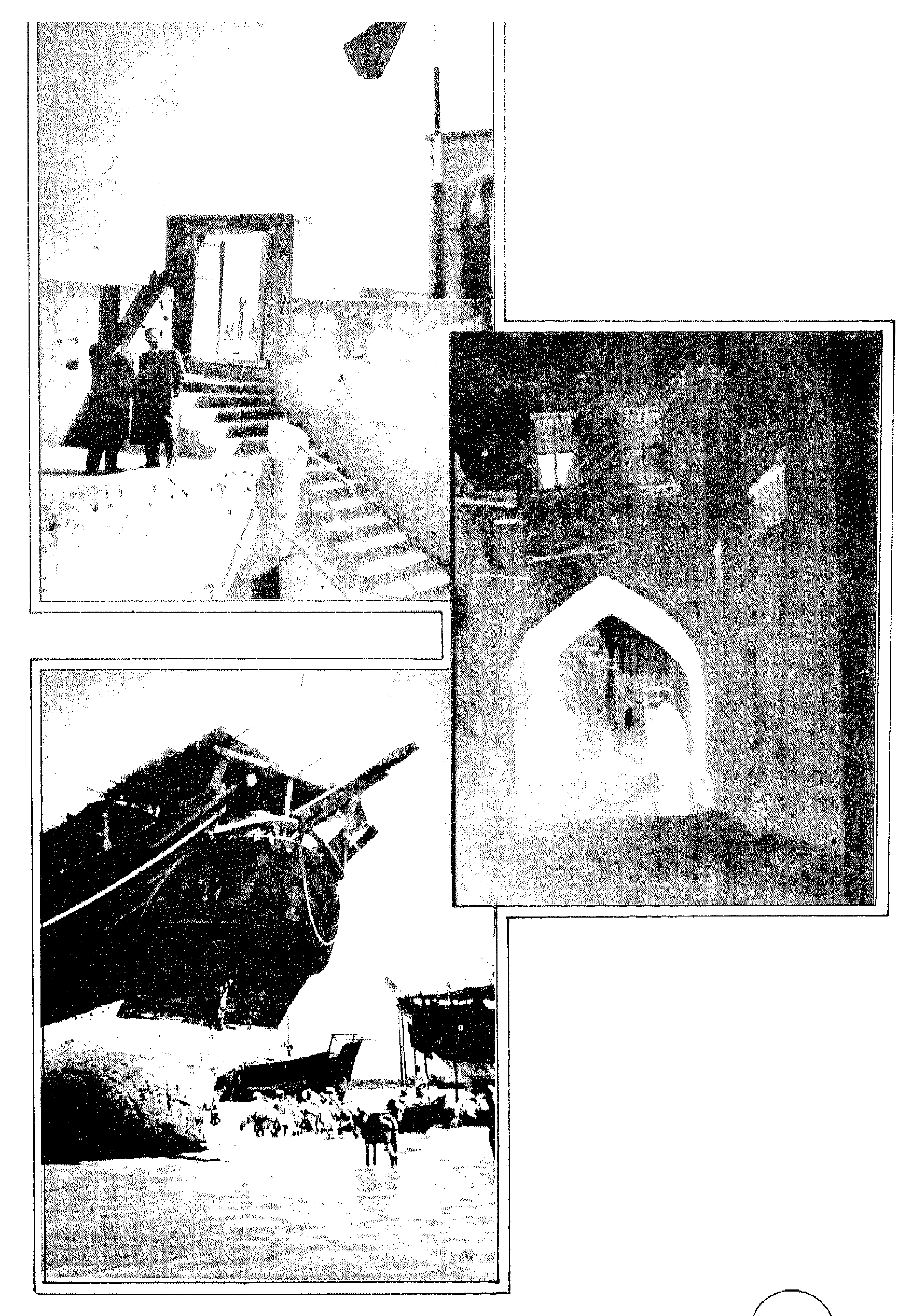


وهكذا مرت خمس سنوات تقريبا قبل ان يعلن الشيخ خليفة في الحادي والثلاثين من مايو ــ أيار ١٩٧٧ انه قد اختار نجله الاكبر اللواء الشيخ حمد بن خليفة آل‌ثاني وليا للعهد نظرا لما يعهده فيه من « صلاح وجدارة وكفاءة لولاية العهد ، وبعد التشاور مع اهل الحل والعقد في البلاد وموافقتهم » . كما أمر الشيخ خليفة في الوقت ذاته بانشـــاء وزارة للدفاع واسنادها الى اللواء الشيخ حمـــد بالاضافة الى منصب القـــائد العـــام للقوات المسلحة القطرية .

ولد الشيخ حمد في الدوحة عام ١٩٥٠ وانهى دراسته الابتدائية والاعدادية والثانوية في مدارسها ، ثم التحق بكلية ساند هيرست العسكرية البريطانية وتخرج منها في شهر يوليو ــ تموز عام ١٩٧١ . وقد عمل ضابطا في القوات المسلحة القطرية برتبة مقدم وتولى قيادة الكتيبة المتحركة الاولى . وقد رقي الشيخ حمد الى رتبة لواء في ٢٣ شباط ــ فبراير عام ١٩٧٢ وعين قائدا عاما للقوات المسلحة القطرية على اثـــر الحركة التصحيحية التي قادهـــا والده والتي لعب فيها دورا رئيسيا فكان ثاني اثنين يعلمان بها قبل التنفيذ .

ومنذ ان تولى الشيخ حمد القيـــادة العـــامة عمل على تطوير القوات المسلحة القطرية فتم في عهده استحداث سلاح الجو الاميري القطري وسلاح البحرية وانشاء وحدات الصاعقة والهندسة والشرطة العسكرية والمغاوير ، كمـــا شهدت القوات المسلحة القطرية تحت قيادته تطويرا في الكم والنوع فأخذت تواكب الاسلحة الحديثة وتستوعبها ، ولعبت قطر دورا رياديا مع دول عربية ثلاث اخرى بانشاء الهيئة العربية للتصنيع الحربي مع جمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية ودولة اتحاد الامارات العربية ، وقد ترأس الشيخ حمد وفـــد قطر الى المؤتمرات العسكرية العربية واجتماعات وزراء الدفـــاع العرب وصار سموه عضو اللجنـــة العليـــا للهيئة العربية للتصنيـــع الحربي .

لقد استقبلت الصحافة العربية اختيار الشيخ خليفة حمد وليـــا للعهد بارتيـــاح واعتبرته علامة مـــن علامـــات الاستقرار الدستوري واستكمال مقوماته . وقد أطرت صحيفة « الاهرام » القاهرية صفات ولي العهد فقالت انه الى جانب صقله‌عن‌طريق الدراسة العسكرية فانه « قد خاض مرحلة من الممارسة الشـــاقة في توليـــه مسؤوليات القـــائد العـــام للقوات المسلحة ومسؤوليات منصب وزير الدفـــاع فاثبت في اشتراكه في اجتماعات مجلس الدفـــاع العربي المشترك وفي اجتماعات الهيئة العربية للصناعات الحربية قدرته عـــلى الدراسة والاستيعاب وخاصة في القضايا الدقيقة ذات الطابع القومي » .



الفصل الثاني

بين الماضي والحاضر

من السهل ان يقع المرء احيانا تحت خطأ الظن بأن قطر هي وليدة بترول او ان تاريخها في افضل الاحوال لم يبدأ قبل اكثر من مائتي عام . ذلك ان اكثر من يؤرخون للبلد يبداون بحوالي منتصف القرن الثامن عشر واوائل القــــرن التاسع عشر حينما انتقلت الى شبه جزيرة قطر بعض القبائل العربية من نجد في الجزيرة العربية ومنها اسرة ال ثاني الاسرة الحاكمة في قطر .

ولكن تاريخ هذه البلاد يبدأ قبل تاريخ كثير من البلدان الاخرى المتقدمة . ومن فوائد الاطلاع على هذا التاريخ رؤية العناصر التي تبقى تعمل بشكل او بأخر فيما تحت وعي البلد . مثلا : اتجاه قطر ونزعتها لان تكون جزءا لا يتجزأ من المنطقة لا منفصلة عنها . رغبة قطر في ان تكون طبيعية بدون البترول . الرغبة* الغريزية في التحويل الزراعي . الانطلاق في علاقات بعيدة المـــدى . النزعة الاستقلالية القوية . التعلق بالدين والمذهب . سياسة التوازن . كل هذه الملامح تتكرر في تاريخ قطر او تنعكس على ما يشابهها .

وروايتنا هنا للتاريخ هي بالضرورة انتقائية للعثور على الملامح التي تكمـــل الصورة او تفسرها وليست تاريخا من اجل التاريخ فالحاضر لا يمكن ان يكون ذا مغزى مفيد دون رؤيته والنظر اليه في السياق التاريخي والا كان مثل نبتة شاذة تظهر فجأة ثم لا تلبث ان تذوي وتذهب مثلما ظهرت .

يحدثنا العلماء انه قبل حوالي اربعين الف عام ، حينما لم تكن قطر تدعى قطر ولا البحرين تدعى البحرين ، كانت هذه المنطقة تختلف عما هي عليه الان. ارضا وطبيعة ومناخا . فمن ناحية الارض يؤكد العلماء ان البحر في ذلـــــك الوقت كان اكثر ارتفاعا بحوالي ثمانين قدما .

وقد استدل على ذلك بوجود اثار بحرية على هذا الارتفاع في جزيــــرة البحرين وشبه جزيرة قطر ، ولربما يعني هذا ان الكثير من الرمال في قطر والبحرين هي رمال مكتسبة منذ ذلك التاريخ . بل ويؤكد العالمان الاثريـــان الدانيماركيان بيبي وغلوب ان مساحات شاسعة من الرمال في قطر هي مما لا يزيد عمره عن الفي سنة . ويقترح هذان العالمان ان الساحل الغربي لشبه جزيرة قطر ربما كان عبارة عن سلسلة من الجزر تراكمت فيما بينها الرمـــال نوصلنها بعضها بالبعض الاخر وبشبه الجزيرة .

كانت تلك الفترة قبل حوالي اربعين الف سنة تتوافق مع الفترة التي كانت فيها مساحات كبيرة من اوروبا مغطاة بالجليد . وتشير البعثة الدانيماركية للاثار الى «اعتقاد بان ظروف العصر الجليدي في اوروبا كان لها تاثير فـــي الاحوال المناخية امتد جنوبا حتى وصل الى الجزيرة العربية » . وهــــذا التغيير المناخي انطوى على تغيير طبيعة المنطقة .

على اي حال فمما لا ريب فية ان الرياح قد عملت على تعرية الارض فـــي اماكن وتراكم الرمال في اماكن اخرى مما يدعو الاثريين الى الاعتقاد بأن اثارا كثيرة لمستوطنات بشرية لا تزال مدفونة تحت كميات هائلة من الرمال . ويعتقد

العلماء أن هذه المنطقة ربما كانت فيها غابات وانواع مختلفة من الحيوانات بدليل رووس الاسهم التي عثر عليها في هذه المناطق .

لا يجوز لنا في تصورنا لهذه المنطقة في تلك المراحل التاريخية او بعدها التأثر بالتقسيمات السياسية الحالية ومعاملة جزر البحرين وقطر ومنطقة الاحساء على اساس انها ليست منطقة واحدة تخضع لنفس العوامل والظروف .

حينما بدا العالمان الاريان الدانيماركيان بيبي وغلوب اعمالهما الاكتشافية في جزيرة البحرين عام ١٩٥٣ لمحاولة تفسير وجود مقبرة تضم مائة الف قبر في الجزيرة هي اكبر مجموعة من نوعها في العالم، كانت ثمة نظرية تقول ان سكان شبه الجزيرة العربية كانوا يستعملون جزيرة البحرين كمكان لدفن موتاهم .

فحتى ذلك التاريخ لم يكن قد تم العثور على اثار مستوطنات بشرية في الجزيرة ولكن العالمين ما لبثا ان عثرا على اثار مستوطنة يعود تاريخها الى العصر الحجري في الالف الثالث قبل الميلاد . في هذه المستوطنة اكتشف العالمان حضارة الديلمون التي تحدثت عنها الكتابات المسمارية في بلاد ما بين النهرين. وذهب العالمان يبحثان بعد ذلك عن امتدادات هذه الحضارة من مصب دجلة والفرات حتى مضيق هرمز .

في شبه جزيرة قطر وجدت البعثة الدانيماركية اثار مستوطنات بشرية وقبورا من نفس النمط الذي عثرت عليه في البحرين . هذا ربما يعني ان حضارة الديلمون التي ارتبطت مؤخرا بجزيرة البحرين لم تكن مقصورة على تلك الجزيرة . فقد وجدت البعثة الشيء ذاته على جزيرة ام النار في امارة ابو ظبي وفي عمان وواحة البريمي وجزيرة فيلكا في الكويت وفي الاحساء . وبذلك تكون حضارة الديلمون هي حضارة منطقة الخليج كلها تقريبا في القرن الثالث قبل الميلاد . **وكانت منطقة الخليج منطقة واحدة منذ اقدم العصور .**

ان الناظر الى صحراء قطر وطبيعة ارضها الان او الى اي مكان آخر في الخليج غير البحرين لا يمكن ان يتصور حضارة الديلمون على هذه الارض قبل خمسة الاف سنة تقريبا . تلك الحضارة التي اشارت اليها الكتابات البابلية والسومرية فذكرت مكانا يسمى « ديلمون » على مسافة ثلاثة ايام بالسفينة (الشراعية) الى الجنوب من مدن بابل الجنوبية في (العراق) . وقد برزت ديلمون في ملحمة جلجامش «كأرض الخلود » والمكان المفضل للقاء الالهة والموضع الذي جاء منه اجداد السومريين وتعلموا طريقة الكتابة . وهي على حد قول السومريين المكان الذي لجأ اليه « زيوسودرا » بعد نجاته من الطوفان .

ديلمون ، ارض الخلود ، كما تصورها كتابات السومريين « حيث الغراب الذي لا ينعق والاسد الذي لا يفترس » والخيرات الكثيرة وحيث المراة حينما تكبر لا تشعر بأنها عجوز والرجل لا يخاف من المرض او الشيخوخة . ومن هذه الارض جاءت قصة الافعى التي اغوت الانسان .

يذكر سرجون الاكدي في لوحاته سنة ٢٣٠٠ ق . م وجود مراكب من ديلمون في مينائه . وتفصل لوحات من مدينة « اور » حمولة هذه المراكب من اصواف ونحاس وذهب وعاج ومواد نادرة .

ملوك عديدون من البابليين والاكديين يذكرون في سجلاتهم استلامهم للجزية من ملوك ديلمون وكما يذكرون حملات عسكرية اخضعوا فيها ديلمون وضموها الى ممتلكاتهم . وهناك لوحان من الاجر هما عبارة عن رسائل من التجار البابلين الى وكلائهم في ديلمون . وكل هذه الكتابات لا تحدد مكان ديلمون بالضبط فيما عدا انها جزيرة على مسافة ثلاثة ايام الى الجنوب .

قد تكون جزيرة البحرين ذاتها هي مركز ديلمون وعاصمة حضارتها . الا أن ذلك لا يحرم شبه جزيرة قطر التي تبعد ثمانية عشر ميلا فقط وغيرها من المناطق المجاورة من ان تكون جزءا من ديلمون وحضارتها .

البعثة الاثرية الدانيماركية وجدت في شبه جزيرة قطر عدة حضارات تاريخية منها ما هو جزء من الحضارة العامة في الخليج ومنها ما هو معزول لا شبيه له . وكان أحد المواقع الاثرية يدل على حضارة غريبة معزولة عن المنطقة . والمشكلة التي كانت تعانيها البعثة هي تحديد تاريخ تلك الحضارة بالضبط ومنشئها .

حدثت قصة قصيرة عندما وجدت البعثة هذه الاثار الى جانب اثار الفحم بدا عليها انها اثار نار اطفئت قبل ايام . ولكن البعثة جمعت كل هذه الاثار معا بما فيها الفحم وارسلتها الى معمل التحليل الكاربوني في كوبنهاغن . ولم يلبث ان جاء الجواب بعد التحليل . لقد تحدد تاريخ تلك الاثار بعام ٥٠٢٠ «قبل الميلاد». وتشير هذه الاثار . كما اكد احد العلماء « الى علاقة مع الحضارة التي جاءت من الشمال الى سوريا وفلسطين في بداية الالف السابع قبل الميلاد ،وقد استدل على هذه الحضارة من عدة مواقع اثرية اشهرها تل رماد في وادي الاردن والبيضا في جنوب فلسطين على حدود الصحراء العربية » .

واذا كانت شبه جزيرة قطر على مثل هذه الصلة بفلسطين قبل حوالي تسعة الاف سنة فمن باب اولى ان تكون على صلة اوثق بالمناطق المحيطة والقريبة قبل اربعة الاف او خمسة الاف سنة .

وقصة الاختام التي وجدت في جزيرة البحرين وجزيرة فيلكا في الكويت لاتقل اثارة او دلالة على صورة هذه المنطقة واتصالها الحضاري . فقد وجدت في الاثار المكتشفة في البحرين بين الفخار قطع من النحاس والعاج تدل على اتصال تجاري مع الشرق في شبه القارة الهندية . وبين هذه الاثار عثر على سبعة اختام تستعمل لطبع الماركات التجارية على البضائع .

قبل العثور على هذه الاختام السبعة في البحرين لم يكن يوجد ما يشابهها سوى عشرين ختما ، سبعة عشر منها وجدت في بلاد ما بين النهرين ويعود تاريخها الى سنة ٢٤٠٠ ق.م وثلاثة من موهنجودارو في باكستان .

كانت هذه الاختام هي الدلالة الرئيسية على الحضارة المجهولة التي كانت موجودة في وادي الاندوس في شبه القارة الهندية وعلى العلاقة التجارية بين هذه الحضارة والحضارة السومرية في بلاد ما بين النهرين . ولكن الاختام السبعة التي وجدت في البحرين قد حيرت الباحثين لانها كانت تبدو محلية لا تنتمي الى الاندوس الذين كانت اختامهم عادة مربعه ، ولا الى بلاد ما بين النهرين الذينكانت اختامهم اسطوانيةالشكل . اثارت اكتشافات البحرين احتمال ان تكون هذه الاختام من صنع محلي وان تكون فكرتها قد انتقلت الى الشمال والشرق قبل اربعة الاف عام . وقد تأكد هذا الاحتمال في عام ١٩٥٩ حينما اكتشفت في البحرين دكان صانع اختام من هذا القبيل ووجد في دكانه من بين ما وجد ختم مكسور غير كامل الصناعة كسر كما يبدو اثناء صناعته . فيما بعد وجدت اختام كثيرة من هذا النوع في جزيرة فيلكا الكويتية .

يبدو من كل ذلك ان حضارة ديلمون في هذه المنطقة قد ازدهرت اثر نشوء دول المدن الغنية في بلاد ما بين النهرين ووادي الاندوس ونشوء طلب على النحاس الذي كان يأتي من عمان. وقد وجد سكان منطقة ديلمون من صيادي الاسماك والغائصين على اللؤلؤ مجالا للتجارة بين الهند وساحل عمان وبلاد ما بين النهرين . وبالرغم من غزوة سرجون الاكدي عام ٢٣٠٠ ق.م لبلاد ديلمون وسيطرته عليها الا ان التجارة قد ازدهرت وتوسعت في نقل النحاس من عمان والذهب والعاج من الهند في مقابل البضائع الصوفية من بلاد ما بين النهرين . وهكذا فمنذ اقدم العصور كان سكان الخليج واسطة التجارة بين الهند وبلاد ما بين النهرين .

اذا كان هذا الاتصال الحضاري قائما منذ اقدم العصور بين هذه المنطقة والشرق والشمال والغرب شاملا الهند والعراق وفلسطين فليس من المعقول ان لا تكون المنطقة ذاتها متصلة اتصالا وثيقا في كافة المجالات الحضارية والسكانية وانماط المعيشة واللغة والتفكير واسلوب الحياة . وكانت اقدارها السياسية والاقتصادية تسير معا في وقت واحد . كما كانت احوالها تتأثر بأحوال الحضارات المجاورة في شمال الهند وايران وبلاد ما بين النهرين .

مثلا حينما دمرت القبائل الاندواوروبية حضارة مدن وادي الاندلس في شمال الهند في ما يعرف اليوم بباكستان حوالي ١٨٠٠—١٦٠٠ ق.م تراجع ازدهار سكان « بلاد البحر » واقتصرت التجارة على المناطق بين عمان والعراق . وتراجعت هذه الحضارة اكثر فاكثر منذ سيطر الاشوريون على المنطقة عام ٧٥٠ ق.م وادعوا السيادة عليها .

لسنا نعرف على التحديد ما اذا كانت المنطقة كلها تحت سلطة ملك واحد او امير يستقل احيانا استقلالا تاما ويقوى فيفرض سلطانه على ما جاوره ويوحد المنطقة واحيانا اخرى يؤدي الطاعة الى اباطرة الشمال او انها كانت تحت سيطرة عدة ملوك او امراء كل يستقل بناحيته او قبيلته . كما اننا لا نعرف على التحديد ما اذا كانت عاصمة المنطقة قد ظلت هي هي ذاتها على مر القرون . غير انه من المرجح ان صورة المنطقة خلال الخمسة عشر قرنا كانت مكررة عن صورتها خلال القرون التي سبقت ذلك . ومن هذه الصورة نستطيع ان نستنتج ان بروز ملك قوي في أي ركن من أركان المنطقة كان يعني امتداد حكمه وسيطرته وقيامه بضم المنطقة كلها تحت جناحيه . وان غياب ملك قوي كان يعني انقسام المنطقة الى ممالك وامارات ومشيخات . وتكاد هذه الحال ان تكون غريزية في المنطقة على مر التاريخ .

منطقة الخليج ان لم تتوحد كلها دائما سياسيا فقد توحدت دائما حضاريا واقتصاديا وجمعها اسم واحد . بعد ديلمون ، جمع المنطقة اسم « بلاد البحر » . ثم جمعها من خليج البصرة الى مضيق هرمز اسم « البحرين » باعتبار وجودها على بحرين هما الخليج العربي من جهة وبحر العرب من جهة اخرى . وقد ظلت كل هذه المنطقة تدعى بالبحرين خلال معظم الفترة ما بين القرن الرابع الميلادي والسادس عشر حينما اقتصر اسم البحرين لدى مجيء البرتغاليين على الجزر لتي تعرف اليوم باسم دولة البحرين . وقد حملت منطقة العقير والهفوف والبحرين وقطر احيانا في العهود الاسلامية اسم « بلاد الخط » وربما نسبة الى الرماح المستقيمة التي كانت تصنع فيها حيث كان يؤتى اليها بعصي الرماح من الهند لتصنيعها وتقويمها. وربما كانت ثمة علاقة بين اسم بلدة « الخطية » في شبه جزيرة قطر وبين هذا الامر .

لم يغلب اسم الخليج على هذه المنطقة كلها الا في عهود قريبة نسبيا . وقد حمل هذا الاسم صفات جغرافية من الخليج الفارسي الى خليج البصرة الى خليج القطيف الى الخليج العربي الذي يثير في هذه الايام حساسيات قومية . ويقال ان اول من اعطى الخليج اسم الخليج الفارسي لم يكونوا الفرس وانما اليونان عندما عاد امير البحر لدى الاسكندر المقدوني واسمه نياركوس مع جنوده من الهند بمحاذاة الساحل الشرقي للخليج . فعندما قدم نياركوس تقريره الى سيده لم يجد افضل من ان ينسب الخليج الى الفرس نظرا لمعرفة الاسكندر بهم جيدا عندما قاتلهم جنوده وهزموهم .

كان الاسكندر من ناحية اخرى قد ارسل ثلاث سفن استكشافية الى الساحل العربي للخليج . ووصلت سفينتان منها بقيادة اركياس واندروستينز الى جزيرة تسمى تايلوس قيل انها البحرين . الجغرافيون الرومان خلطوا بين الاسماء في الخليج فظهر اسم تايلوس في بعض الخرائط

على البحرين بينما ظهر عليها في خرائط اخرى أسم ايكارا وظهر اسم تايلوس على جزيرة اخرى عند فم الخليج . كما ظهر اسم اخر لجزيرة اخرى هو اراثوس او ارادوس . ومن الطريف ان اسم « أراد » لا يزال يطلق اليوم على جزء من جزيرة المحرق في البحرين . ولكن جزيرة البحرين منذ القرن الثالث او الرابع الميلادي وحتى القرن السادس عشر كانت تعرف باسم « اوال » وهو أسم الوثن الذي كان يعبده سكان الجزيرة قبل الاسلام .

في شمال شبه جزيرة قطر كان السكان يعبدون وثنا اسمه كثرى او « كثراي » . وليس غريبا ان ينسب السكان او المكان الى الوثن مثلما حدث في « اوال » حيث ذكرهم المؤرخ الروماني جايوس بلينيوس سكونداس في القرن الاول الميلادي باسم بدو « كثراي » . ولعل هذا الاسم « كثراي» هو اقرب الاسماء الى أسم قطر .

وخلال كل هذه الفترة التي عرفت فيها البحرين باسم « اوال » كان اسم البحرين اسما لكل الساحل الشرقي للجزيرة العربية من الكويت حتى قطر.

ان تحديد المواقع والاسماء في فترات التاريخ المعينة امر ذو اهمية واضحة لتحديد الملامح التاريخية للمنطقة واجزائها . فان الكثير مما ينسب للبحرين خلال معظم التاريخ الاسلامي لا يعني جزر البحرين بقدر ما ينطبق على شبه جزيرة قطر وما جاورها . كما لا يعني ان اسم قطر في الفترات المختلفة من التاريخ كان يعني دائما شبه جزيرة قطر بحدودها السياسية التي نعرفها اليوم . فربما ان الاسم كان ينطبق بصورة خاصة على شمال شبه الجزيرة ثم اتسع ليشملها كلها .

ولم يكن اسم قطر كما عرفناه في بدايته اسما لكيان سياسي بل كان اسما لمكان يشتهر عليما يبدو بجودة الابل وجودة المصنوعات. قال الشاعر :

كل يوم كان عنا جللا   غير يوم الحنو في جنبي قطر

وقال اخر :

الاوب اوب نعائم قطرية   والال آل نحائص حقب

وقال ثالث :

لدى قطريات اذا ما تغولت   بها البيد جاوزن الحزوم الفيافيا .

وذكر ان رسول الله صلى اللهعليه وسلم قد لبس الثوب القطري وكذلك زوجته عائشة رضي الله عنها التي لبست ثوبا قطريا ثمنه خمسة دراهم . كما انه كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ازار قطري مرقوع برقعة من الجلد . وقد وصفت هذه الثياب بانها حمر لها اعلام اي خطوط وفيها بعض الخشونة. غير انها تدلنا على أن هذه الثياب القطرية بالنسبة لداخل الجزيرة العربية كانت اقرب الى الحضارة .

بعد انهيار حضارات وامبراطوريات الشمال في بلاد ما بين النهرين لم تخضع هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية لاي سلطة خارجية حتى اوائل القرن الرابع الميلادي حينما تجمعت القبائل العربية وقامت بغزو فارس

والاستيلاء على عدد من مدنها ونهبها. وقام الملك الاسباني الساساني شابور الثاني بصد الغزو وملاحقة الغزاة الى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية . فيما بعد وضعت هذه المناطق تحت حكم ملوك المناذرة في الحيرة . وكانت الحيرة دولة عربية حدوديه عازلة بين الفرس والعرب مثلما كانت دولة الغساسنة في الشام عازلة بين الرومان والعرب .

من عهود ديلمون الى عهود ملوك المناذرة ، ماذا كان السكان والى اي الاقوام ينتمون ؟ نحن نعلم ان سكان الخليج بما فيهم سكان بلاد ما بين النهرين كانوا ينتمون الى القبائل السامية التي ينتمي اليها العرب .

والمؤرخون العرب يجملون قسمة هذه الاقوام الى عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة .

يبدو ان الفينيقيين والكنعانيين يأتون في هذه القسمة تحت العرب البائدة وانهم هاجروا الى الساحل السوري من منطقة الخليج . فمقابر ديلمون تشبه مقابر الفينيقيين . وبعض آثار المقابر التي ارسلها عالم الاثار البريطاني « تيودور بنت » الى المتحف البريطاني عام ١٨٨٩ من البحرين قد اثبتت هذه الصلة الفينيقية . وكان المؤرخ اليوناني « هيرودوتس » (٤٨٤ — ٤٢٥ ق.م) قدم نياركوس تقريره الى سيده لم يجد افضل من ان ينسب الخليج الى العربية قبل انتقالهم الى سواحل لبنان وفلسطين . كما اشار سترابو الجغرافي (٦٤ ق.م — ١٩ م) الى ان المقابر الموجودة في جزر البحرين تشبه مقابر الفنيقيين وان اسماء عدد من المواقع في هذه المناطق هي اسماء فنيقية .

ثمة الان اسماء قديمة على طول ساحل الخليج تتواجد في الوقت ذاته على سواحل لبنان وسوريا . « زكريت » في قطر اسم تحملة قرية في شمال لبنان اليوم . وعلى ساحل عمان بلدة اسمها « صور » . وهناك « جبيل » على ساحل الاحساء. «واراد» اسم البحرين القديم يقابله اسم جزيرة « ارواد » بالقرب من الساحل لسوري . وذكر نياركوس اليوناني مدينة اسمها « صيدا » في الخليج وان لم يتمكن احد حتى اليوم من تحديد موقعها .

وهناك مجال كبير لمتابعة الاسماء التاريخية القديمة والاستدلال بها على الكثير من الاصول .

يبدو ان قبائل طسم وجديس من العرب البائدة هم بدو « كثراي » الذين ذكرهم المؤرخ الروماني في القرن الاول للميلاد . فقد كان هؤلاء يعبدون «كثرى» او كثراي . وقد جاءوا الى شبه جزيرة قطر اصلا من اليمامة. وكانت « زرقاء اليمامة » المشهورة في الادب العربي في حروب طسم وجديس امرأة من جديس سميت بالزرقاء لزرقة في عينيها الحادتين . واستعانة طسم على جديس بملوك اليمن في تلك الحرب تعطينا صورة عن الانتقال السكاني ومداه في الجزيرة العربيه حيث ان اليمنيين ، كما تقول الرواية ، بعد هزيمتهم لجديس وانتصارهم لطسم قضوا على طسم ايضا وحلوا محلها .

على ان العرب البائدة كانت ذات شكيمة قوية رفضت ان تخضع للاسكندر المقدوني او ان تؤدي له الطاعة حينما مر ببلاد ما بين النهرين لفتح السند والهند . والعرب العاربة كانت اشد شكيمة بمحاولتها غزو فارس في أوائل القرن الرابع الميلادي .

عندما جاء الاسلام الى بلاد البحرين (قطر والاحساء والجزر وساحل الخليج) وجدها تحت حكم المناذرة عليها ملك اسمه المنذر بن ساوي التميمي . وسكانها من العرب ينتمون بصورة رئيسية الى ثلاث قبائل هي تميم وبكر بن وائل وعبد القيس . وكانت دياناتهم ومذاهبهم مزيجا من كل الديانات والمعتقدات التي نشأت في الخليج ومنطقة الشرق الاوسط على اتساعها . فكان هنالك النصارى واليهود والزرادشتيون ممن يتبعون ديانة فارس . كما كان هنالك عبدة الاصنام .

المنذر بن ساوي التميمي كان نصرانيا . وتذكر سجلات الكنيسة الشرقية للقرن السابع الميلادي خمسة مطارنة نسطوريين احدهم لبلاد البحرين . وتذكر بعض المصادر انه ورد ذكر اسقفية « بيت قطر » عام ٢٢٥ م .

على اي حال ، بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب مع العلاء الحضرمي عام ٦ هـ يدعو المنذر فيه الى الاسلام : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى . فاني احمد الله الذي لا اله الا هو . اما بعد فان من صلى صلاتنا ونسك نسكنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذاك المسلم له ما لنا وعليه ما علينا له ذمة الله ورسوله . من احب ذلك من المجوس فهو آمن ومن أبى فعليه الجزية » .

قد أسلموا معه وبعض العجم من سكان المنطقة . ثم وفد على الرسول الكريم مع قومه من تميم .

لكأن الرسول الكريم عليه السلام كان على معرفة عميقة بتميم محبا لخصالها ميالا اليها . فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « هم اشد امتي على الدجال » . وقوله في جارية تميميه : « اعتقها فانها من ولد اسماعيل » .

قيل ان التميم في اللغة هو من التمام والكمال . وهو من تمت فيه الصفات المثلى بالنسبة لما يراه البدوي في الصحراء العربيه . فهو شديد المراس قوي البأس صلب العود كريم يلين للقول الحسن ويرق قلبه للضعيف ويهوى العدالة والحق . وربما ان هذه الصفات قد اجتمعت في قبيلة تميم التي لم تكن لتسمى تميما عفو الخاطر .

وقيل انه عندما وفد بنو عبد القيس من بلاد البحرين على النبي صلى الله عليه وسلم لمبايعته وعلم بوصولهم قال لاصحابه : « سيطلع عليكم ركب هم خير اهل المشرق ، لم يكرهوا على الاسلام ، فقد انضوا الركائب (اي اتعبوا الابل واهلكوها) وافنوا الزاد . اللهم اغفر لعبد القيس . (اي اغفر لها ما ارتكبته من عبادة الاصنام) .

لا يبدو ان المنذر بن ساوى الذي كان يمثل عهدا من سياسة التبعية للفرس كان يصلح لان يظل ملكا او اميرا في العهد الجديد بالرغم من دخوله في الاسلام. وقد حصل له مثلما حصل للملك جبلة بن الايهم من ملوك الغساسنة في الشام والذين كانوا يدورون في فلك النفوذ الروماني . فقد كان من المهم ان يحل رجال النظام الجديد محل رجال النظام القديم بكل ارتباطاته وتكوينه السياسي والاقتصادي .

وقد امر الرسول عليه السلام العلاء الحضرمي على اهل البحرين يديرها ويجمع الجزية فيها ممن لم يدخل في الاسلام .

كانت بلاد البحرين ذات وضع اقتصادي وسياسي متميز عن بقية شبه الجزيرة العربية بحكم موقعها التجاري . فقد روى أن قوافل تجارة الفرس كانت تبذرق (أي تخفر وتحرس) حتى تصل الى ارض بني تميم فتبذرقها بنو تميم وتأخذ عليها جعالة حتى تصل الى اليمن . فكانت البحرين لذلك منطقة نفوذ سياسي واقتصادي لفارس ومركزا تجاريا تتوفر فيه بضائع اكثر مما يتوفر في اي مكان اخر .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث ابا عبيدة الى البحرين يأتيه بجزيتها فقدم ابو عبيدة بمال وبضائع انتشر خبرها واغرت النفوس . وسمعت الانصار بالمال فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد الصلاة عندما هم الرسول الكريم بالانصراف تعرض له الانصار فتبسم وقال : « اظنكم سمعتم ان ابا عبيدة قدم بشيء ؟ » قالوا: « أجل يا رسول الله » قال : « فأبشروا وأملوا ما يسركم » . ثم اضاف : « فوا الذي نفسي بيده ، ما الفقر اخشى عليكم ولكن اخشى ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما اهلكتهم » .

اذا كان يخشى من الاوضاع الاقتصادية المتقدمة للثغور على الطهر العقائدي للمسلمين فقد كان يخشى ايضا من الفئات ذات المصلحة في هذه الاوضاع من السكان المحليين وابرزهم المجوس واليهود والحكام . وكانت ازالة الحاكم المحلي المنذر بن ساوى واحلال العلاء الحضرمي محله بمثابة هدم للسلطة السياسية القائمة . ولكن تغيير ما تحتها من مصالح اقتصادية كان يتطلب وقتا وجهدا اكبر . وكان العلاء الحضرمي يجمع دينارا واحدا من الجزية عن كل رجل ممن لم يدخلوا في الاسلام . فتأثر بذلك المجوس واليهود وبعض العرب من المتحالفين اقتصاديا مع الفرس والذين حرمهم النظام الجديد مكانتهم في « البذرقة » واخذ الجعالة . ولذلك ما ان توفي الرسول صلى الله عليه وسلم وحدثت الردة حتى سارعت بعض قطاعات السكان في بلاد البحرين الى الارتداد .

كانت بكر بن وائل من اوائل القبائل العربية المرتدة وكذلك بعض تميم . وليس من المستبعد ان يكون التجار المحليون من بقايا اليهود والمجوس قد

خرضوا على الردة وغذوها لدوافع سياسية واقتصادية بالاضافة الى الدوافع الدينية . ذلك اننا نجد العلاء الحضرمي ، وقد استعان على المرتدين ببني عبد القيس اخذ يجهز البلاد لغزو فارس مركز النفوذ السياسي والاقتصادي الذي يمكن ان يظل مبعث قلاقل بالنسبة للنظام الجديد . وقد عبر العلاء الحضرمي « بجموع عبد القيس الى الشاطيء الشرقي وحقق انتصارا كبيرا للمسلمين » فكان على ما قيل اول مسلم ركب البحر لغزو .

لم تكن تلك الغزوة لفارس على ما يبدو مما يقصد به الفتح والاستيلاء على الاراضي وانما كانت معركة ذات اهداف استراتيجية محدودة يقصد بها سياسيا كسر هيبة فارس بين اشياعها وحلفائها السابقين من اهل البحرين وربما ضرب التجار اصحاب رؤوس الاموال على الشاطيء الاخر لتغيير البنية الاقتصادية الطفيلية للبحرين وتحويل التبعية الاقتصادية . واما من الناحية العسكرية فان الغزوة كانت تختبر تعبئة اهل البحرين وتنظيمهم في النظام الجديد بقدر ما هي كانت جسا لقوة الدولة الفارسية واختبار قوتها .

ولئن كشفت هذه الحملة عن شيء فقد كشفت عن القدرات البحرية لاهل الخليج تلك القدرات التي جعلتهم عبر الاف السنين يجوبون البحار من شواطيء الهند الى بلاد ما بين النهرين . (كان سرجون الاكدى قد وصف ملك ديلمون بأنه يعيش مثل السمك في الماء ولم تكن الدولة الاسلامية التي قامت على سواعد رجال الصحراء لتبني الاساطيل البحرية وتخوض بها المعارك على وجه الخصوص . وسنرى فيما بعد ، حتى في عصور الانحطاط ، كيف استطاعت سفن اهل الخليج ان تزعج اساطيل امبراطوريتين هماالامبراطورية البرتغالية والامبراطورية البريطانية . بل ان المكتشف البرتغالي فاسكود يغاما الذي اكتشف الطريق الى الهند في اواخر القرن الخامس عشر ما كان ليكتشفها لولا احمد بن ماجد البحار العربي الذي ارشد سفينة ديغاما عبر المحيط الهندي .

تولى بلاد البحرين بعد العلاء الحضرمي عثمان بن ابي العاص الثقفي وهو رجل من الطائف منع ثقيفا عن الردة حينما قال لهم : « كنتم آخر الناس اسلاما فلا تكونوا اولهم ارتدادا » . وتكشف لنا هذه الجملة عن رجل عملي فعال لا مجال عنده للتردد او ترك الامور تجري على اعنتها دون تبصر وبعزم فواصل عثمان السير على سياسة العلاء الحضرمي في ترسيخ النظام الجديد وتطوير التدريب والتعبئة فقام بحملات بحرية على فارس اكثر تقدما من حملة العلاء الحضرمي كانت عبارة عن تدريبات اقتحام واستيلاء وتمركز . واقتحم عثمان بن ابي العاص اجزاء من فارس واستولى عليها ومنها شيراز .

نعرف ان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عين ابا هريرة الصحابي المشهور رضي الله عنه للصلاة والخراج في البحرين وان الخلاف بين الخليفة علي بن ابي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن ابي سفيان قد

انبح فرقة الخوارج الاسلاميه التي اتخذت من الخليج ملجا وقاعدة لشن هجماتها العسكرية انتصارا لمبادئها . فالخلافة في رايهم حق لكل مسلم مـا دام كفوا لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي . وعلى الخليفة الـذي يقع عليه اختيار المسلمين ان يخضع خضوعا تاما لما امر به الله والا وجب عزله .

وقد وقعت بلاد البحرين (اليمامة وقطر والاحساء وجزر البحرين) تحت حكم الخوارج النجدية بزعامة نجدة بن عامر بن عبد الله الحنفي الذي استولى عليها عام ٦٧ هـ ٦٨٦ م واستعادتها جيوش الخليفة عبد الملك بن مروان منهم عام ٧٦ هـ ٦٩٥ م قبيل مصرع قطري بن الفجاءة الزعيم الخارجي الاكبر فـي طبرستان عام ٧٧ ــ ٧٩ هـ ٦٩٦ ــ ٦٩٨ م .

مع ان قطري بن الفجاءة كان قطريا ولد في الاعدان في الشمال من قطر في البلدة التي تسمى اليوم بالمعدان ، ومع انه شب وترعرع في قطر واتجه فيها الى افكار الخوارج فانه لم يحكمها ولم ينشىء فيها دولة بل عاش بعيدا عنها معظم حياته يقاتل الامويين في العراق وايران حيث دانت له اجزاء كبيرة من البلاد وجبى منها الخراج وصكت باسمه النقود .

ولعل انه لو انشق عن نافع بن الازرق في البصرة وعاد الى بلده كما عاد غيره لكانت الدولة له . ولكن قطريا لم يكن خارجا لدولة او ارض وانما كان خارجا لمبدأ استطاع ان يطوره عقائديا وسياسيا وعسكريا الى درجة تضعه مع اعظم قواد الحروب الشعبية .

كان قطري ينتمي الى تميم وقد سمي قطريا نسبة الى قطر مع ان اسمـه الحقيقي هو جعونة بن يزيد وكنيته ابو نعامة . وسمي ابوه بالفجاءة لانـه كان غائبا في اليمن كما قيل ثم ظهر فجاة في قطر . ولعل ان اباه كان يعمـل مع قوافل التجارة التي تذهب الى اليمن وعاد فجاة الى قطر بعد دخول تميم في الاسلام . ولا نعرف تاريخ مولد قطري بالضبط لانه لم يبرز الا بعد معركـة « دولاب » في جنوب العراق سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م . ففي هذه المعركة ثم بعـد مقتل رئيس الخوارج الازارقة نافع بن الازرق برز قطري كمقاتل شديد البأس ومستشار اول في شؤون الحرب والسياسه . غير انه يرجح ان مولد قطري كان في اواخر العقد الثالث للهجره . ويكون بذلك قد شهد في طفولته عظمة الاندفاعة الاسلامية وسمع عن الردة وحروبها وعاش ازمة الوجدان الاسلامي في الخلاف بين معاوية وعلي الذي بلبل الافكار وحير العقول . وانقسم الناس شيعا واحزابا وساد جدل سياسي عقائدي عنيف ابتعد الاخ فيه عـن اخيه بسبب تشيعه لعلي او تحيزه لمعاويه .

مال قطري الى الخوارج صغيرا واتجه الى البصره مركزهم حيث التقى زعماءهم وعلماءهم . وبعد تلك الرحلة الطويلة التي قرحت قدميه انكشف له « وجه الحق » فكانما اصيب بصاعقة لم تقتله وانما ازالت الغشاوة عـن عينيه . ويصف هذه التجربة في بيت من الشعر حيث يقول : ثم انصرفت وقـد اصبت ولم اصب جذع البصيرة قارح الاقدام . وانضم قطري الى الخوارج مبكرا فتدرب تدريبهم وتثقف بثقافتهم وخاض معاركهم الفكرية والحربية . ومع

الضغط عليهم في البصره انصرفوا الى مكة لدعم ثورة عبد الله بن الزبير ضد الامويين وقد املوا ان يرى رايهم. ولكنهم بعد ان ساعدوه اكتشفوا انه خدعهم واستعملهم لاغراضه فضاعت ثمار جهودهم القتاليه بسبب سذاجتهم السياسيه . وعادوا بعد ذلك الى البصرة لاعاده تقييم مواقفهم فانقسموا الى ازارقة واباضية وصفارية ونجديه . الازارقه بقيادة نافع بن الازرق يبيحون قتل اعدائهم دون تفريق بين محارب وغير محارب ويحرمون « التقية » اي عدم الجهر بالمبدأ خوفا على النفس ويحرمون القعود اي اعتناق المبدأ دون الخروج للقتال . وهم يعتبرون غير الخوارج من المسلمين مشركين يحرم الزواج منهم والمقام بينهم واجازة شهادتهم ويحرم ايضا اكل ذبيحتهم . كانت هذه اراء نافع بن الازرق فانشق عنه نجدة بن عامر فكان زعيم الخوارج النجديين . وانفصل عبد الله بن اباض الذي اعتبر المسلمين من غير الخوارج « براء من الشرك ولكنهم كافرون بالنعم والاحكام تحل دماؤهم ولا تحل اموالهم » فكان زعيم الاباضيين . اما عبد الله بن صفار فقد كان اكثر اعتدالا حينما اعتبر هؤلاء وهؤلاء البعض اكثر غلوا من البعض الاخر فكان زعيم الصفاريين .

قطري بن الفجاءة كان مع الازارقة بل كان اشدهم بأسا واكثرهم فصاحة وبيانا ومن دهاتهم في الحرب والسياسة . وخلال ثلاث سنوات تقريبا قتل نافع بن الازرق وخلفاؤه عبد الله وعبيد الله الماحوز والزبير بن علي السليطي . وفي عام ٦٨ هـ اتجه ازارقة الخوارج الى عبيدة بن هلال لمبايعته بخلافتهم فرفض وقال : « ادلكم على من هو خير مني ، من يطاعن في قبل ويحمي في دبر . عليكم بقطري بن الفجاءه المازني . » وبايع الخوارج قطريا ونادوه بأمير المؤمنين .

وكانت لقطري صولات وجولات مع عامل الامويين الحجاج بن يوسف، وقواده . نادى بالمساواة الذمة فانضم اليه الموالي وحاربوا معه . واتبع سياسة حرب العصابات يختار مكان المعركه وتوقيتها ويضرب حيث لا يتوقع العدو. ويخندق دائما ويعرف كيف ومتى ينسحب بانتظام وكيف يحافظ على جنوده فلا يغامر او يكابر ويقدر قوة الاعداء حق قدرها ويعرف مزايا ومعايب قوادهم . ولم يكن يساوية في القدره العسكرية والحيلة من قواد الامويين الا المهلب بن ابي صفرة الذي لجأ في النهاية الى ضرب مركز قوة قطري وهي العقيدة المذهبية ففرق من حوله جنوده بالفتنة تمهيدا للقضاء عليه . وقد قتل قطري بن الفجاءة في طبرستان بعد ان تفرق عنه قواده .

مهما يكن من امر فان قطر قد اعطت العالم الاسلامي واحدا من ابرز القواد العسكريين والسياسيين جدير بالدراسة بين قادة الحروب في التاريخ . كان اميا كما قيل ومع ذلك فقد كان شاعرا يعبر عن خلجات نفسه بصدق ويضع في بيت واحد من الشعر تجربة ثرية فذة. وكان واضح الفكر مما جعله قادرا على ان يعرف اعداءه على حقيقتهم وينظر اليهم نظرة صحية لا تتجاهل ميراتهم ولا تغالي في معايبهم . والذي يهمنا من هذا الامر فيما يتعلق بقطر هو ان هذه البلاد كانت مدرسته الاولى فكريا وسياسيا وعسكريا . فان الجو

الفكري الذي كان ساندا فيها من حب للعقيدة وغيرة عليها هو الذي كان دافعه الاول كما انه نعلم من قومه تميم فن القول والقتال .

يكشف لنا قطري بن الفجاءة واخوه جرموز عن هذه النوعية من الناس في قطر . فمع ان قطريا كان خارجيا عن مبدأ فان اخاه كان سنيا يقاتل ضده في جيش الخليفة الاموى عن مبدأ ايضا وغيرة على دولة الخلافة .

قيل ان الحجاج بن يوسف الثقفي والي الامويين في العراق كان يشتد على جرموز بن الفجاءة خشية ان يكون عنصرا مدسوسا عليه يعمل لقطري. وقد قال له ذات يوم. « لاقتلنك . » قال جرموز : « ولم ذلك ؟» قال الحجاج: « لخروج اخيك . » قال جرموز : « فان معي كتاب امير المؤمنين الا تأخذني بذنب اخي . » قال الحجاج « هاته » . ولم يكن جرموز يحمل كتاب توصية من امير المؤمنين كما زعم ولكنه قال على الفور : « ومعي ما هو اوكد منه » قال الحجاج : . « ماهو ؟ » قال جرموز : «كتاب الله عز وجل حيث يقول: ولا تزر وازرة وزر اخرى . »

لقد كسر الاسلام العصبية القبلية وعلاقة الدم واصبح الانتماء سياسيا . والمتقاتلون على جانبي خط المواجهة كانوا في حالة عقلية متقدمة وعلى قدر من الوعي والنضج السياسي الذي يمكن مقارنته بفورة الوعي الديمقراطي في اوروبا القرن الثامن عشر . فحركة التاريخ الجدلية قائمة على اشدها بين السلطة والشعب في جو صحي لا تنتفي فيه المعارضة البناءة ولا الاحتجاج على سوء التصرف أو اساءة استعمال السلطة .

والي البصرة يخرج الى رهان للخيل تتمثل فيه مظاهر استرخاء الدولة وركونها الى المظاهر غير الصحية فيأتي اليه الرجل منبها : « خمس كن في الامم قبلنا تصرن فينا » ، اي خمس صفات اضاعت الامم التي قبلنا . ثم استشهد بالاية الكريمة من سورة الشعراء : « اتبنون بكل ربع اية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين . » فقام الامير وترك الرهان .

ويقف ممثل السلطة على المنبر يهدد ويتوعد ليخيف الناس ويقتل لديهم ايه قدرة على المعارضة اذ يقول . « والله لاخذن المحسن منكم بالمسيء والحاضر منكم بالغائب والصحيح بالسقيم » فيقف خارجي ليقول له : « لقد سمعنا ما قلت ايها الانسان ، وما هكذا ذكر الله عز وجل عن نبيه ابراهيم عليه السلام اذ يقول : « وابراهيم الذي وفى الا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » وانت تزعم انك تأخذ المطيع بالعاصي .

ويكتب قطري بن الفجاءة الى احد الخوارج من القاعدين الذين يناضلون ضد الفساد نضالا سياسيا بأفواههم وليس بحد السيف يقول له :

ابا خالد يا انفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
اتزعم ان الخارجي على الهدى وانت مقيم بين لص وجاحد

وهو الذي يقول :

وما للمرء خير في حياة   اذا ما عد من سقط المتاع

فالانسان على رأي قطري ، مهما كان اصله ومتشوه ، يجب أن يكافح عن الحقوق التي وهبه الله اياها وان يكافح دونها والا فان الموت افضل له من حياة يكون فيها مثل سقط المتاع لا قيمة له . اما السلطة فهي لا ترى ما يراه قطري وامثاله . ويتمثل رأى السلطة في ما كتبه الحجاج الى قطري من رسالة استعلائية ارستقراطية حيث يقول له : « اما بعد ، فانك كنت اعرابيا بدويا ، تستطعم الكسرة وتخف الى الثمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجع عما انت عليه بما زين لك ، وادعني فقد ان لك . » ويرد عليه قطري بما يمثل الرؤية الاخرى،قائلا : « بسم الله الحمن الرحيم . من قطري بن الفجاءة الى الحجاج بن يوسف . سلام على من اتبع الهدى. ذكرت في كتابك اني كنت بدويا استطعم الكسره وابدر الى الثمرة . وبالله لقد قلت زورًا . بل الله بصرني من دينه ما اعماك عنه ، اذ انت سائح في الضلالة ، غرق في غمرات الكفر . وذكرت أن الضرورة طالت بي ، فهلا برز من حزبك من نال الشبع ، واتكأ فاندع . اما والله لئن ابرز الله لي صفحتك ، واظهر لي صلعتك لتنكرن شبعك ولتعلمن ان مقارعة الابطال ليست كتسطير الامثال » .

ما يهمنا هنا هو استكشاف هذه الحالة العقلية والسياسية والاجتماعية التي سادت في قطر والخليج خلال هذه الفترة التي تنتهي باخر القرن السابع الميلادي بعد مرور حوالي ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .وهي تنتهي بعوده جيوش الخلافة الى قطر واستعادتها من الخوارج النجديين وبمصرع قطري بن الفجاءة في طبرستان وعودة الاراضي التي سيطر عليها الى حوزة السلطة .

وقد عاشت بلاد البحرين أكثر من قرن ونصف بعد ذلك في ظل سلطة الخلافة المركزية بعيدة عن الاضطرابات الكبيرة الى ان تفاقم الوضع مرة اخرى في اواخر القرن التاسع الميلادي في ثورة العبيد التي تعرف بثورة الزنج . واستولى « صاحب الزنج » على بن محمد بن عبد الرحيم على بلاد الساحل وحكم لمدة خمس سنوات الى ان اجبرته قوات الدولة العباسية على الهرب وقضت عليه عام ٢٧٠ هـ ٨٨٣ م .

ولكن لم يكد يستقر الوضع حتى قامت ثورة القرامطة ونزل ابو سعيد الدقاق سواحل الخليج وتمكن من تأسيس دولة وراثية مستقلة عاصمتها « هجر » في الاحساء عام ٢٨٣ هـ ٨٩٦ م . وتم له الاستيلاء على الاحساء وقطر واليمامة وعمان وتوسع ابنه ابو طاهر الى « اوال » وجنوبي العراق واستولى على الحجاز وفتح مكة عام ٣١٧ هـ . ٩٣٠ م .واقام الخطبة في الحرمين الشريفين لعبد الله المهدي الفاطمي بدلا من الخليفة العباسي .

استفحل امر القرامطة الذين دامت دولتهم حوالي قرنين من الزمن . وقد انكشف زيف مبرراتهم المذهبية حينما تحولوا عن تأييد الفاطميين الى مسالمة العباسيين ونقلوا الحجر الاسود من مكة الى هجر وجعلوا حكمهم ملكيا وراثيا ثم اختلفوا فيما بينهم على الرياسة والسياسة . وقد انتهى حكمهم في النهاية على يد عبد الله على آل ابراهيم العيوني عام ٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م .

بمجيء العيونيين الى الحكم يلاحظ بدء انتقال النظام من الدولة الى اللادولة . وينسب العيونيون الى بلدة العيون التي كانوا يسكنونها في الاحساء . وهم لا يمثلون اي مبرر مذهبي كالدول التي قامت قبلهم وانما يمثلون عودة القبلية وانتهاء قوة المذهب كعامل محرك في السياسة . فمن قوة العقيدة الاسلامية في صدر الاسلام التي نزعت الولاء القبلي وجعلت الولاء لله ورسخت سلطة الدولة ، انحدرت الامور عبر الثورات والاضطرابات وعادت الى القبيلة .

دام حكم العيونيين اكثر من مائة وخمسين سنة وامتد ليشمل قبائل عديدة في نجد وعمان وبلاد الشام . ولم يحدد سلطان العيونيين بالاراضي وانما بالقبائل . ويكاد يكون انتهاء حكمهم بلا تحديد زمني . ففي حوالي النصف الاول من القرن السابع للهجرة الذي يقابله النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي انتقلت « الرئاسة » الى بني عصفور . روى ابن خلدون ان ابا سعيد المؤرخ قال : « سألت اهل البحر حين لقيتهم بالمدينة المنورة سنة ٦٥١ هـ عن بلادهم فقالوا : الملك لعصفور وبنيه واما بنو ابي الحسن فاصبحوا من جملة رعاياهم » .

في القرن الثامن الهجري — الرابع عشر الميلادي — جاء بنو نبهان من عمان ثم تناوب الحكم على « اهل البحر » عديدون .

البرتغاليون

في اوائل القرن العاشر للهجرة — اوائل القرن السادس عشر للميلاد — كانت أرض البحر من عمان حتى البصرة موزعة بين حكم القبائل والدويلات بينما كانت الحياة الاقتصادية قد اصبحت تعتمد بصورة رئيسية على البحر .

وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية قد سقطت عاصمتها القسطنطينية في أيدي الاتراك من بني عثمان ، واضطر البرتغاليون الى الامتناع عن استعمال البحر الاحمر في تجارتهم مع الشرق الاقصى . وعندما اكتشف فاسكو ديغاما البرتغالي ، مستعينا بالبحار العربي احمد بن ماجد ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند عام ١٤٩٢ م وجد العمانيين من اهل البحر يحتلون مستوطنات لهم على طول الساحل الشرقي لافريقيا . وفي خلال السنوات العشرين التالية قام الاميرال البرتغالي الفونس دي الباكيرك المشهور بقسوته

ووحشيته بالاستيلاء على اراضي وممتلكات العمانيين في الخارج وفي عمان ذاتهـــا

ومن الملاحظ ان اهل الخليج خلال هذه القرون التي انحطت فيها سلطة الخلافة العباسية قد مارسوا دورهم الطبيعي البحري في التجارة وهو ذلك الدور الذي مارسه سكان المنطقة في عهـــد « ديلمون » . فبنوا الاساطيل التجارية والسفن المقاتلة وسيطروا على عدة مراكز للتجارة على سواحل افريقيا والهند . وكان ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية مهددا لمصالحهم التجارية مثلما كان ظهور البريطانيين والهولنديين وغيرهم من الاوروبيين . ولذلك فقـــد تصدت سفن اهـــل الخليج للسفن الاوروبيـــة تغيـــر عليهـــا من اعالي البحار وتستولي على ما فيها ممـــا دعـــا الاوروبيين الى تسمية هذه العمليات «بالقرصنة» وسموا ساحل الخليج لذلك بساحل «القراصنة» .

الحقيقة ان الدول الاوروبية قـــد بدأت تخترق مجالات النفوذ البحري والتجاري الاسلامي في الفترة بين اواخر الدولة العباسية واوائل الخلافة العثمانية التي ورثتهـــا . وكـــان مـــن الطبيعي ان تتصدى القوى البحرية الاسلامية لهذه القوى الاوروبية الغازية . الا ان الدولة المركزية لم تكن في وضع يمكنها من القيام بذلك . فتصدت القوى المحلية في الخليج للقيام بهذه المهمة . ولكن لم تلبث ان جاءت قوى الخلافة العثمانية التي ورثت الخلافة العباسية فجرد السلطان حملة بحرية تتألف من سبعين سفينة وعشرين الف جندي عام ١٥٣٤ م لاسترداد الخليج وطرد البرتغاليين .

كان البرتغاليون قد استولوا عام ١٥٠٧ م على هرمز وبدأوا في تغلغلهم وبسط نفوذهم داخل الخليج . وقد استولوا عام ١٥١٧ م على البحرين وقطر والقطيف . وكانت المقاومة امامهم شرسة الا ان حملاتهم كانت اكثر شراسة حيث كانوا يدمرون المدن والقرى التي يحتاجونها ويقتلون السكان ويمثلون بهم . وقد استنجد حكام البحرين والاحساء بقوات الخلافة فجاءت لنجدتهم وتمكنت من « تحرير » عدد من المراقع . في عام ٩٦٣ هـ ١٥٥٥ م كانـــت جيوش الخلافة قد اصبحت بقيادة محمد باشا فروخ الذي تمكن مـــن طرد البرتغاليين مـــن قطـــر والقطيف واضطر البرتغاليون الى الانسحاب مـــن البحرين .

استعانت الجيوش العثمانية اثناء مرورها ببادية الشام في الطريق الـــى الخليج بقبائل بني خالد العربية التي لحقت بها واستقرت في الاحساء . وما لبثت هـــذه القبائل عـــام ١٠٨٠هـ ١٦٦٩م أن ثارت عـــلى السلطة المركزية العثمانية واعلن زعماؤها انفسهم امراء على الاحساء . ثم مدوا سلطتهم على نجد وقطر وغيرهما واستعانوا باصهارهم في قطر من آل مسلم خلال فترة نفوذهم على قطر .

وخلال الثلث الاول من القرن الثامن عشر الميلادي اخذت تتوارد على قطر القبائل المهاجرة من نجد الى منطقة الزباره في شمال قطر . وتلك هـــي

سنة الهجرة عبر القرون . وكان بين هذه القبائل آل الصباح وآل خليفة من العتوب الذين ينتسبون اصلا الى بكر بن وائل . ولكن احد هؤلاء النازلين قتل شخصا قطريا كما يروى فهاج اهل البلد واضطروهم الى المغادرة. ولحق آل مسلم واتباعهم بالنازحين ليثأروا للقتيل . والتقت جموع المتقاتلين في « راس تنورة » في الاحساء فاندحر آل مسلم واضطروا الى العودة الى قطر .

الوهابية

يمكن القول ان الوضع العقلي والحضاري كان قد تقهقر الى ان وصل في هذه الاثناء الى وضع هو أشبه بما كانت عليه العرب في هذه البلاد في عهود الجاهلية . فمع تقهقر الوضع السياسي والاقتصادي تقهقر الوضع الاجتماعي والثقافي والديني ايضا الى حد عودة نوع من مفاهيم الوثنية دون اسمها . فصار الناس يؤمنون بالاضاليل والشعوذة وقبور الاولياء وانتشرت البدع . والوسيلة الوحيده للاصلاح لم تكن لتبدأ الا كما بدات اول مرة بالعقيدة.
وكانت الحاجة ماسة لظهور مصلح ديني ينقي المعتقدات مما علق بها من شوائب ومما تراكم عليها عبر القرون من رواسب مذاهب شتى وفرق مختلفة فسرت الدين تفاسير كثيرة تتناسب واغراضها المعلنة والخفية . وقد ظهر هذا المصلح في شخص الشيخ محمد عبد الوهاب الذي ينسب اليه المذهب الوهابي .

ولد محمد بن عبد الوهاب في نجد عام ١١١٥ هـ ١٧٠٣ م . وهو تميمي جاء في وقت كان الحكم فيه لمؤسس الدولة السعودية سعود بن محمد بن مرخان من سلالة بكر بن وائل . والتقت بكر بن وائل وتميم ممثلتين في محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب حينما بدأ هذا الاخير دعوته الاصلاحية فلقيت ترحيبا واعتناقا من محمد بن سعود الذي تعاهد معه على نشر الدعوة فاكتسبت الدوله السعودية بذلك زخما عقائديا كان هو المحرك الحقيقي عبر القرون للعرب لانشاء الدول .

لم يأت محمد بن عبد الوهاب ، كما حرص على ان يؤكد ، بمذهب جديد . فهو قد تلقى علومه في الحجاز والعراق والاحساء ودرس الفقه على أبيه على مذهب احمد بن حنبل . وانما حرص على التأكيد على انه يدعو « الى الله وحده لا شريك له والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم » . وقد دعا الى نبذ البدع والضلالات وازالة كل اثر يقويها كالانصاب التي على القبور والقباب وما شابهها وزيارتها والاستعانة بها . كما منع اتباعه من التدخين ولبس الحرير والتحلي بالذهب والبكاء على الميت والمقامرة والخداع والنفاق .

وتمكن محمد بن سعود بمؤازرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الانطلاق من « الدرعية » في نجد والاستيلاء على معظم نجد . وعندما تولى الامر من

بعده ولده عبد العزيز بن محمد (١١٧٩هـ — ١٢١٨هـ ، ١٧٦٥م — ١٨٠٣م) تابع تعاونه مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب فاستولى على الرياض والقصيم وبعض مدن العراق الجنوبية والاحساء وادخل بني خالد تحت حكمه وكانوا من المناهضين لدعوة الشيخ .

كان بنو خالد كما ذكرنا يحكمون الاحساء وقطر وقد عينوا آل مسلم على قطر لجمع الزكاة . فارسل عبد العزيز بن محمد آل سعود حملة الى قطر بقيادة سليمان بن عفيصان عام ١٢٥٢هـ ١٧٨٨ م فاستولى عليها بعد معركة عنيفة قتل فيها كثيرون من آل ابي رميح وهم بطن من بطون الخزاعلة الذين حكموا عربستان . وتكررت الغزوة الوهابيه لقطر عام ١٢٠٨هـ و ١٧٩٣م بقيادة ابراهيم بن عفيصان الذي قضى قضاء مبرما على حكم بني خالد في قطر بعد ان دمر مقرهم في قرية « الحويلة » التي وصفت في ذلك الوقت بانهــا كانت اكبر بلدة على الساحل القطري . وكانت مقر آل مسلم من بني خالد .

في عام ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م قام سليمان باشا والي بغداد العثمانــي بهجوم كبير على الاحساء ونجد بأوامر من السلطان العثماني الذي وجد في الدعوة الوهابية تهديدا خطيرا للخلافة العثمانية فاتهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالغلو والخروج على تعاليم الاسلام . الا ان حملات سليمان باشا قد باءت كلها بالفشل . واضطر قسم كبير من سكان الاحساء نتيجة هذه الحملات الى اللجوء الى مدينة الزبارة في قطر والتي كانت قد بدأت تزدهر ازدهارا كبيرا وسريعا قبل ذلك ونمت نموا كبيرا نتيجة احداث لاحقه منها هجرة كثير من التجار من البصرة على اثر احتلال الايرانيين الموقت لهــا قبيل نهاية القرن ونشاط آل خليفة وعدد من الجلاهمة ممن عادوا من الكويت واستقروا في الزبارة عام ١٧٦٦ م . ويرجع سبب عودتهم الى انهم كانوا بعد مغادرتهــم قطر في اواخر القرن السابع عشر مع آل الصباح والجلاهمة قد اسســوا معــا مدينة الكويت حيث جعلوا السلطة اقتساما ، فالحكم في آل الصباح والتجارة في آل خليفة والبحر في الجلاهمة على ان يقتسم الجميع الاربــاح بالتساوي . وبعد حوالي ستين سنة مــن هــذه الاتفاقية راى آل خليفة الاستقلال والتجارة في مكان اخر بعيد عن سيطرة آل الصباح حيث يمكنهم ان يضعوا الانظمة التي يرتأونها لتجارتهم دون تدخل احد .

وبالفعل ازدهرت الزبارة على اللؤلؤ والتجارة في مدى عشر سنوات فقط بحيث اصبحت تنافس اهم الموانىء في الخليج مثل ميناء العقير وميناء القطيف عــلى ساحل الاحساء والموانيء الاخرى عــلى الســاحل الشرقي للخليج . وبدأ يواجه آل خليفة الحسد والاطماع نتيجة تناقض المصالح .

ففي عام ١٧٦٨م اي بعد عامين من تأسيس آل خليفة لمركزهم التجاري في الزباره ، طالبهم آل مسلم بدفع ضريبة الا انهم رفضوا ذلك . وفي الصراع بين آل خليفة وآل مسلم في منطقة الزبارة استطاع الشيخ محمد بن خليفة

بنفوذه وتقربه الى الناس وتحببه اليهم ان يكسب ولاء الناس . وقام الشيخ محمد وابنه من بعده الشيخ خليفة بمشاريع للعمران والتحصين مما زاد في تكريس سلطتهم السياسية .

كانت الزبارة في ذلك الوقت اقرب ما تكون في وقتنا الحاضر الى الميناء المفتوح للتجارة الحرة . وقد رحبت المدينة لذلك باللاجئين من البصرة عام ١٧٧٦م بعد ان حاصرها وخربها الفرس فاسهم هؤلاء اللاجئون كما ذكرنا في تطور الزبارة ونموها وازدياد سكانها وعمرانها كما لجأ اليها بعد ذلك سكان من الاحساء هربا من حملات العثمانيين .

كان نفوذ الزبارة التجاري يمتد الى البحرين مما حمل حاكم شيراز الفارسي على ارسال حملة بحرية بقيادة الشيخ نصر آل مذكور حاكم «بوشهر سنة ١٧٨٣م . ونزلت القوات الايرانية وقوامها الفا رجل الى ساحل قطر وبدات بمهاجمة قلعة المدينة . ولكن هذه القوات وجدت استعدادات جيدة للدفاع كما واجهت قوات متحالفة من جميع القبائل العربية في قطر اكبر مما كانت تتوقع . وحدث قتال عنيف اندحرت فيه القوات المهاجمة وتراجعت الى سفنها تاركة وراءها اعدادا من القتلى . وفي خلال ذلك توافد كثيرون من العرب منهم آل الصباح في الكويت ممن سمعوا بهذا الهجوم فخفوا لنجدة اخوانهم بالهجوم على البحرين لضرب مؤخرة الشيخ نصر ومنعه من العودة اليها فاضطر الى الانسحاب الى «بوشهر» . وواصل القطريون وعلى رأسهم الشيخ احمد آل خليفة . حركتهم الظافرة فاستولوا على البحرين عام ١٧٨٣م حيث وجدوا فيها اسرة الشيخ نصر آل مذكور فارسلوها اليه في «بوشهر» وبدأ بذلك حكم آل خليفة في البحرين .

آل ثاني

كان الشيخ ثاني بن محمد ، الذي تنتسب اليه اسرة آل خليفة ، في مقدمة اهل قطر الذين قاتلوا قوات الشيخ نصر آل مذكور وصدوها عن مدينة الزبارة ثم ساعدوا آل خليفة بعد ذلك في الاستيلاء على البحرين . وكان الشيخ ثاني من مواليد « الزبارة » شجاعا عالي الهمة رئيسا في جماعته . وهو يلتقي مع المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جده الثاني عشر عمرو بن معضاد الذي هو الجد العاشر للشيخ محمد بن عبد الوهاب . فهم جميعا من تميم تلك القبيلة التي انجبت المنذر بن ساوى وقطري بن الفجاءة ومحمد بن عبد الوهاب .

كان اجداد ثاني بن محمد من سكان نجد . وقد هجروا منازلهم في اواخر القرن السابع عشر الميلادي في « اشيقر » في الوشم من نجد ونزلوا واحة « يبرين » الى الجنوب الشرقي من قطر على مسافة نحو مائتي ميل . ثم غادروها ونزلوا « السكك » في جنوب قطر ومنها انتقلوا الى « الرويس »

و « الزبارة » في شمال قطر حيث ولد ثاني بن محمد .

برز ثاني بن محمد كزعيم قطري محلي في مدينة وصفت بأن اهلها متحالفون . وكانت الثروة من تجارة اللؤلؤ رافدا اخر من روافد النفوذ بالاضافة الى المكانة وعلاقات الدم والقربى . واستطاع ثاني بن محمد ان يكتسب بنفوذه وزعامته مكانة متميزة بالنسبة للقبائل الاخرى . فانتقل بأسرته من الزبارة الى « فويرط » على الساحل الشمالي الشرقي حيث انضم اليه سكانها من المعاضيد وآل بوكوارة . وفي « فويرط » ولد ولده محمد بن ثاني الذي عهدت اليه الاسرة برياستها بعد وفاة ابيه . وكان محمد بن ثاني هو الذى انتقل الى « البدع » في الدوحة من فويرط وعرف بشيخ الدوحة .

يمثل الشيخ محمد بن ثاني بداية نزعة سكان شبه جزيرة قطر الى الاستقلال وتأسيس الدولة في العصر الحديث . وقد كان الشيخ محمد بن ثاني ذكيا مشهوراً بالفطنة واللين كما كان عمليا وواقعيا مدركا بصورة جيدة لميزان القوى في المنطقة وعاملا في الوقت ذاته على الاستفادة من هذا الميزان الى اقصى درجة ممكنة لتحقيق اهدافه .

وكانت منطقة الخليج في القرن السابع عشر كما راينا مسرحا لصراع المطامع والمصالح بين الدول الكبرى في ذلك الوقت . فبعد البرتغاليين جاء الهولنديون فالفرنسيون فالعثمانيون فالبريطانيون . ودخل النفوذ البريطاني الى الخليج عن طريق فارس واتباع ملك فارس من الولاة على الساحل الشرقي للخليج .

جاء النفوذ البريطاني اول ما جاء مغلفا بطابع تجاري لشركة الهند الشرقية . ثم اخذ يقوى ويتمركز تدريجيا حتى استطاع ان يحل محل النفوذ الهولندي وذلك بعد ان تمكنت شركة الهند الشرقية من انشاء مركز لها في ميناء بوشهر الذي كان تحت حكم الشيخ نصر آل مذكور الذي كان يحكم جزيرة البحرين ايضا ويدين بالولاء لملك فارس . وصار ميناء بوشهر اول مركز لاول مقيم بريطاني ثم صار لقب هذا المقيم هو « المقيم السياسي البريطاني » في عام ١٨٦٢م وذلك بعد حوالي مائة عام من انشاء مركز المقيم في بوشهر .

كانت السياسة البريطانية في الخليج تعمل على تقليص نفوذ جميع الدول الكبرى مع تجميد الديناميكية السياسية المحلية التي يمكن ان تؤدي الى قيام دولة محلية كبيرة تضم اليها سائر المناطق كما سبق وان حدث في عهود اخرى . فكانت تقف مع الضعيف الى أن يقوى دون ان يقوى الى الحد الذي يهدد فيه بأن يكون قويا جدا . ويتضح هذا بصورة جلية في علاقة بريطانيا مع البحرين وقطر . فبعد ان لم ينجح الشيخ نصر آل مذكور صديق بريطانيا في غزو الزبارة واستيلائه عليها ، وبعد اندحاره واستيلاء آل خليفة على البحرين انتقلت بريطانيا الى التعامل مع آل خليفة في البحرين ووقفت الى جانبهم في الغزوات التي تعرضوا لها من قبل مسقط والفرس والعثمانيين

والوهابيين .
وفي مقابل ذلك استدرجت بريطانيا البحرين الى التوقيع في عام ١٨٣٧ م على المعاهدة العامة للسلام التي كانت قد وقعتها عام ١٨٢٠م مع شيوخ ساحل عمان . وتطورت العلاقة بين بريطانيا وآل خليفة في البحرين تدريجيا فوقعت معهم ميثاق عام ١٨٦١م ثم اتفاقيتي ١٨٨٠م و ١٨٩٢م اللتين تخلت بموجبهما البحرين عن استقلالها فاخذت بريطانيا منهما شؤون الدفاع والخارجية .
كان الشيخ محمد بن ثاني في الدوحة يحسن محالفاته وتوقيتها وخصوصا مع الوهابيين في الوقت الذي كان فيه آل خليفة منشغلين في منازعات تضعفهم وتضعف سيطرتهم . فبعد ميثاق ١٨٦١ بين بريطانيا وآل خليفة في البحرين اراد آل خليفة ان يؤكدوا سلطتهم على الشيخ محمد بن ثاني .
واتبعوا في ذلك اسلوبا فيه دهاء اذ رجوا الشيخ محمد ان يرسل ولده « قاسما » لاجل ما دعوه « بتجديد الصحبة وازالة الشبهة » . وعندما اجابهم الشيخ محمد الى طلبهم وارسل ولده الى البحرين اعتقله آل خليفة وسجنوه . وحدثت تطورات واحداث دفعت القطريين الى مهاجمة البحرين . غير ان هذا الهجوم لم ينجح حيث ان الشيخ محمد آل خليفة قد صدهم .
غير ان الشيخ محمد آل خليفة قد ارتكب خطأ بملاحقة القطريين الى قطر وانزال قواته في « الوكرة » من مدن قطر . وفي الوكره التقى الجمعان مرة اخرى فانتصر القطريون واسروا شيخين من آل خليفة هما ابراهيم بن علي وحمود بن سلمان . واستطاع الشيخ محمد بن ثاني ان يفتدي ولده « قاسما » بهما . وجاء التدخل البريطاني بعد ذلك لا لصالح آل خليفة او آل ثاني وانما لصالح بريطانيا اولا . فقد اعتبرت بريطانيا هجوم الشيخ محمد آل خليفة على قطر مخالفا للميثاق المعقود بين بريطانيا وشيخ البحرين . اذ ان الميثاق ينص على تعهد شيخ البحرين بالامتناع عن اي اعتداء على غيره . وعليه ان يخبر المقيم العام البريطاني في الخليج بكل حادث اعتداء يقع عليه . كما يتعهد بالا يتخذ هو او احد من رعاياه اي اجراء مضاد للمعتدين دون موافقة الحكومة البريطانية .
غير ان المقيم البريطاني الكولونيل بيلي لم يحرك ساكنا الا بعد ان استفحل النزاع وقام الشيخ بن سلمان آل خليفة بتجريد حملة على قطر عام ١٨٦٧م متحالفا مع أبو ظبي حيث نزل الفريقان في الدوحة على حين غفلة من أهلها فاعملوا فيها القتل والنهب . حينذاك تدخل المقيم البريطاني بعد سكوت طال أمده وبموجب الصلاحيات المتعلقة بالامن البحري انشئت عبر هذا التدخل اول علاقة رسمية على شكل اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثاني عام ١٨٦٨ م كانت بمثابة اعتراف بريطاني به كحاكم يمثل قطر . غير ان هذه الاحداث كانت ايضا بمثابة مقدمة للاتفاقيات الاخرى التي اخذت

فيها بريطانيا زمام شؤون الدفاع والخارجية من البحرين وحاولت ان تفعل الشيء نفسه مع قطر .

لم تنجح بريطانيا في قطر بالسرعة التي نجحت فيها في البحرين بسبب بروز الشخص الثالث من آل ثاني وهو الشيخ قاسم الذي استطاع خلال خمس وثلاثين سنة من حكمه ان يحول قطر الى دولة ذات كيان سياسي مستقل فعلا . فقد ورث الشيخ قاسم عن ابيه قدرته على فهم موازين القوى والاستفادة منها . وقد رافق والده في الاحداث الجسام . والارجح ان مولده كان عام ١٨٢٤م وبذلك كان رجلا في العقد الرابع من عمره حينما أخذ رهينة في البحرين وقامت من اجله الحرب . وقد لعب دورا كبيرا وكان في حياة ابيه السياسية خصوصا بعد ان اصبح والده كبيرا في السن كفيفا وكان هو رجلا مكتمل النضوج في الرابعة والاربعين من عمره عند توقيع اتفاقية ١٨٦٨ م مع البريطانيين .

وقد عمل الشيخ قاسم على الاستفادة من مزايا تلك الاتفاقية والتخلص من مضارها عند اول فرصة سانحة .

في عام ١٨٧١م وقبل ان يتولى الشيخ قاسم الحكم رسميا باربع سنوات جاءه الدعم من والي بغداد العثماني الذي ارسل حامية عثمانية من الاحساء الى قطر تتالف من ثلاثمائة جندي بقيادة رئيس اول مع مدفعية وسفينة حربية واعلن مدحت باشا ان قطر هي قائمقامية ،وصدرت براءة سلطانية بمنح الشيخ قاسم لقب قائمقام .

حدث هذا بعد اربع سنوات فقط من الاتفاقية مع بريطانيا . وبذلك تكون محصلة قوتي الامبراطوريتين البريطانية والعثمانية قد التقت في قطر مما يعطي الشيخ قاسم فرصة الاستفادة من هذا التوازن لتحقيق استقلال قطر . فالبريطانيون والعثمانيون كلاهما يعترفان بسلطة آل ثاني على قطر كل منهما على طريقته . بقي على الشيخ قاسم ان يحقق الاستقلال على طريقته هو .

كان الشيخ قاسم على اتصال بمدحت باشا والي بغداد العثماني الذي قيل انه كان طرازا جيداً من الولاة العثمانيين . وكان مدحت باشا قد ارسل حملة برية وبحرية بقيادة محمد نافذ باشا الى الاحساء بطلب من عبد الله بن فيصل آل سعود لمساعدته على اخيه سعود بن فيصل وكانت الحملة تتالف من الجند العثماني والكويتي بقيادة عبد الله آل صباح واخيه مبارك . فمن الخطأ القول ان العثمانيين قد استولوا على قطر في هذه الحملة لانهم لم يفعلوا ذلك . وحقيقة ما حدث هو ان مدحت باشا ارسل حامية عثمانية الى قطر نتيجة الاتصالات التي كانت قائمة بينه وبين الشيخ قاسم وتقاربهما في النظرة . في ظل هذا التوازن بين الدولتين الكبيرتين في المنطقة اخذ الشيخ قاسم يعمل على جمع سكان قطر جميعهم على هدف واحد واشاعة السلام بينهم وتوحيدهم مع وضع حد للاحتراب القبلي بينهم والعمل على اعمار المرافق الرئيسية اللازمة لهم كالموانيء . وكان يرغب في اعادة اعمار مينائي

« الزبارة » و « العديد » اللذين دمرتهما الغزوات المختلفة وادعت كلا منهما تو ى مختلفة خارج قطر . وكانت للشيخ قاسم من الصفات الشخصية مـــا جعله يستقطب سكان قطر كلهم حوله . فكان خطيبهم وقاضيهم ومفتيهـم . وكانت له خمس وعشرون سفينة تعمل في صيد اللؤلؤ فيشتغل عليها عــــدد كبير . واشتهر عنه انه كان ولوعا بعتق العبيد فأعتق في حياته أكثر مــــن خمسين عبدا .

طلب الشيخ قاسم من مدحت باشا مساعدته في اعمار مينائي الزبــــارة والعديد . والمعونة الاقتصادية في هذه الحال كانت تنطوي على مغاز سياسية يمكن أن تؤثر على ميزان القوى المحلية في الخليج فتنبهت بريطانيا للمرامــي البعيدة المدى لوالي بغداد وحليفه الشيخ قاسم . وقامت بالاعتراض ودفـــع امارات اخرى الى الاعتراض ايضا . ولم يتوقف الاعمار الا بنقل مدحت باشا من منصبه في ولاية بغداد .

ولم تنس بريطانيا ما فعله الشيخ قاسم بموازناتها فأخذت تخلق المشاكل امامه بعد توليه الحكم رسميا عام ١٨٧٨ م . ففي عام ١٨٨٢ م اتهمته باتلاف بضائع يمتلكها رعايا هنود والزمته تحت طائلة التهديد من الاسطول الحربي البريطاني بدفع غرامة قدرها خمسة الاف روبية . وفي عام ١٨٨٧ م الزمتــه بدفع غرامة أكبر مستغلة نزاعا كان ثار بينه وبين البحرين .

تحمل الشيخ قاسم التحرشات البريطانية هذه وحاول الحفاظ على التوازن الدقيق بين بريطانيا والعثمانيين بحيث لا يقع تحت سيطرة اي منهما . حدث مثلا ان محمد حافظ باشا القائد العثماني في الاحساء اخذ يوغر صدر الدولة العثمانية على الشيخ قاسم متهما اياه « بالاستقلال » والانفصال عن جســـم الدولة . فأرسلت الدولة العثمانية حملة برية وبحرية بقيادة محمد حافـــظ باشا ضد الشيخ قاسم . واشتركت في الحملة قبيلة العجمان والكويت بقيادة مبارك الصباح . كان ذلك عام ١٨٩٢ م .

نزلت القوة البحرية العثمانية في الدوحة وتوجهت الى بلدة « الوجبة » على بعد خمسة عشر كيلو مترا الى الغرب من الدوحة لملاقاة الشيخ قاسم بعد ان رفض الشيخ ان يذهب الى محمد حافظ باشا وارسل اخاه احمد نيابة عنه . وكانت القوى البرية من جموع العجمان والكويت قـــد وصلت الى موقـــع « سلوى » في الجنوب من قطر . وقبل ان تصل هذه الجموع وتنضم الى محمد حافظ باشا قام الشيخ قاسم بالهجوم على القوة العثمانية وحقق عليها انتصارا تكبد فيه العثمانيون أكثر من مائة اصابة وبعض الاسرى بينما لاذ الباقــــون بالفرار .

على اثر هذه المعركة اغتنم المقيم السياسي البريطاني في بوشهر الفرصة وعرض على الشيخ قاسم « الحماية » فرفض الشيخ هذا العرض . وسويت المسألة بعد ذلك مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي ارسل الـــى

الشيخ برسالة مع السيد محمد سعيد النقيب طالبا تسوية الامور واطلاق سراح الاسرى بعد ان قام بعزل محمد حافظ باشا من منصبه .
كانت قطر تحتمي بالدولة العثمانية دون ان تكون تحت حمايتها . ولم يكن العثمانيون وحدهم في الميدان في لعبة التوازن هذه، بل كانت هنالك قوى كبرى اخرى منافسة لبريطانيا مثل فرنسا وروسيا وغيرهما . وقد عقدت فرنسا وروسيا عام ١٨٩١ م اتفاقية سرية لمجابهة النفوذ البريطاني في الخليج وفارس وكان تنامي الاستقلال القطري يزعج بريطانيا خصوصا في تجارة السلاح التي كانت تشكل اكبر تهديد للمصالح البريطانية في المنطقة .
كان تطلع الدو ل الكبرى الى منطقة الخليج يتزايد بازدياد المصالح البريطانية ففي عام ١٨٧١م ، وهو نفس العام الذي تحصنت فيه قطر بالمدفعية العثمانية والبحرية واصبحت فيه كيانا اقليميا واضح المعالم والغت فيه عمليا اثار معاهدة ١٨٦٨م ، في ذلك العام حصل البريطانيون على اضخم امتياز اقتصادي في المنطقة حينما حصل البارون جوليوس دي رويتر على امتياز استثماري مدته سبعون عاما يغطي كل ايران . وانتشرت أخبار هذا الامتياز في كل اوروبا واثارت غرائز النهم . فبموجب ذاك الامتياز كان يحق للبارون دي رويتر استغلال جميع الثروات الطبيعية بما فيها الاحراج وتقاضي كل عوائد الجمرك الايراني والتزام كل المشاريع بما فيها مشاريع المواصلات .
وفي عام ١٩٠١ حصل البريطاني وليام نوكس دارسي على امتياز للتنقيب عن النفط في ايران في مساحة اربعمائة وثمانين الف ميل مربع مع اعفاء من اية ضريبة لمدة ستين عاما مقابل عشرين الف جنيه استرليني و١٦ بالمائة من الارباح .
وفي خلال ذلك كانت تندلع ثورات القبائل الايرانية باسلحة وصفها البريطانيون انها كانت افضل من اسلحة الحكومة . وكان مركز تجارة الاسلحة هو مسقط التي كانت تتمتع بمركز فريد نتيجة معاهدات تجارية لها مع اميركا وفرنسا وهولندا يتيح لها ان تكون مركزاً لهذه التجارة في الخليج . اضف الى ذلك ان تجار الاسلحة الفرنسيين كانوا يتخذون من ميناء جيبوتي مركزاً للتصدير الى الخليج فيحملها التجار الى الخليج وفارس وبلوخستان وافغانستان ومقاطعات اسيا على حدود الهند مما يثير قلاقل للامبراطورية البريطانية .
عقدت بريطانيا معاهدات واتفاقات محلية في الخليج لتحريم تجارة الاسلحة ففي عام ١٨٨١م عقدت معاهدة مع شاه ايران في هذا السبيل اتبعتها بمعاهدة مع شيخ البحرين عام ١٨٩٨ والكويت عام ١٩٠٠ وشيخ ساحل عمان عام ١٩٠٢ ولم يستثن من ذلك سوى قطر في عهد الشيخ قاسم التي استطاعت ان تحتفظ بحريتها في هذا المجال الى ما بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى .
قضية السفينة القطرية « فتح الخير » مثلا أصبحت قضية دولية بين فرنسا

وبريطانيا حينما نقلت هذه السفينة عام ١٩١٠ الفي بندقية من مسقط فلاحقتها احدى سفن البحرية البريطانية واضطرتها الى العودة الى مسقط بعد شهرين من الملاحقة في البحر . وقد قدمت الشركة الفرنسية صاحبة الشحنة الى الحكومة البريطانية عن طريق الحكومة الفرنسية طلبا بالتعويض قدره ستون الف ريال .

هكذا استطاع الشيخ قاسم وسط هذه الامواج المتلاطمة من تنافس الدول الكبرى في منطقة الخليج ان يحتفظ لقطر باستقلالها وما للاستقلال من فوائد. وحينما اتفقت الدولتان البريطانية والعثمانية عام ١٩١٣ على تحديد مناطق نفوذهما في الخليج ، كانت سياسة الشيخ قاسم التي انتهجها هي التي جعلتهما تعترفان لقطر رسميا بالبقاء خارج مناطق سيطرتهما بموجب المادة (١١) من الاتفاقية بينهما والتي نصت على ان « تتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر التي سيستمر في حكمها الشيخ قاسم آل ثاني وخلفاؤه من بعده وتعلن الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين في امور قطر الداخلية او ضمها الى اراضيه » . وبعد وفاة الشيخ قاسم بن محمد بقليل وقعت هذه الاتفاقية في ٩ آذار عام ١٩١٤ بين الحكومتين البريطانية والعثمانية . وفي آب — اغسطس من نفس العام قامت الحرب العالمية .

في عام ١٩١٥ وبعد ان قام البريطانيون باحتلال العراق في اولى سنوات الحرب واخراج العثمانيين منها ، وصل الى الدوحة المعتمد السياسي البريطاني في الكويت ودخل في مفاوضات « حادة » على حد وصفه مع الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر حول معاهدة جديدة مع بريطانيا . ولم توقع هذه المعاهدة معاهدة الحماية الا بعد عام ، اي في تشرين الثاني — نوفمبر عام ١٩١٦ م حينما اضطرت قطر الى التخلي بموجبها عن شؤون الدفاع والخارجية مثلما كانت البحرين قد اضطرت عام ١٧٩٢ م . وقد شملت معاهدة ١٩١٦ جميع نصوص المعاهدات الاخرى التي بدأت بريطانيا بتوقيعها مع امارات ساحل عمان منذ عام ١٨٢٠ م .

الهجمة البترولية

السيطرة والحماية البريطانية اللتان عمتا الخليج بشاطئيه تقريبا منذ اكثر من قرن من الزمن انتظرتا طويلا على ابواب قطر . وحتى عام ١٩١٦ م لم توقع قطر على معاهدات الحماية التي كانت بريطانيا قد اجبرت الامارات والمشيخات الاخرى على توقيعها منذ وقت طويل .

تظهر روح هذا البلد في الرسالة التي كان الشيخ قاسم قد وجهها الى والي نجد العثماني حيث يقول :

« لكن صدق خلوص نصحي وديانتي ومحبتي للملة وللدولة التي ما تخفي

على احد ما قاسيت من الشدائد والمشاق حيث الجونا (الجانا) الانجليز بأخذ اموالنا واحراق سفننا ثلاث مايه سفينة ولا بالينا ولا بما يبذلونه لنا من الترغيب بالاموال الجسيمة والتشويق الى الدخول في حمايتهم برانا الله مـن ذلك » .

وقد استطاعت قطر ان تفوز باعتراف كل من بريطانيا والدولة العثمانيـة باستقلالها عشية الحرب العالمية الاولى بالرغم من الصياغة الماكرة لنـص الاتفاقية بين الدولتين والتي ضمنت بها بريطانيا عدم تدخل البحرين في شؤون قطر ، أي انها ضمنت عدم تدخلها هي في شؤون قطر عن طريق البحريـن حيث انها كانت تضع في يديها شؤون الخارجية والدفاع للبحريـن . الا ان نشوب الحرب بعد اشهر من توقيع هذه الاتفاقية قد اوقف تنفيذ جميع ما ورد فيها مثلما اوقف جميع ما ورد في الاتفاقيات البترولية مع الدولة العثمانية في العراق .

يبدا بروز البترول والمصالح البترولية هنا كعامل مهم في معظم الاحداث بما في ذلك معاهدة الحماية التي وقعت مع قطر عام ١٩١٦ م . ويمكن رؤية تحرك المصالح البترولية في المنطقة على الشكل التالي .

في عام ١٨٨٨م حصل الالمان من الدولة العثمانية على امتياز بناء خط السكك الحديدية عبر الاناضول الى العراق مع حق استغلال الثروات المعدنيـة لمسافة عشرين كيلومترا على جانبي ذلك الخط . في عام ١٩٠١ م حصـل البريطاني وليام نوكسي دارسي على امتياز التنقيب عن النفط في ايران . في هذا الوقت كانت الحكومة البريطانية تبحث جديا في تحويل اسطولها عـن استخدام الفحم الحجري الى البترول . وبرز في الاستانة الارمني العثماني الجنسية كالوست غولبنكيان الذي نبه الدولة العثمانية الى الامكانات البترولية التي يمكن ان يستفيد منها الالمان في امتياز خطهم الحديدي . فقامت الدولة العثمانية باستملاك أراضي ولايتي الموصل وبغداد وسحب الامتياز من الالمان الذين نزلوا عند رغبة العثمانيين وطلبوا ان تكون لهم الافضلية في المستقبل على اية جهة اخرى .

قام غولبنكيان بعد ذلك بالمساعدة على تأسيس بنك بريطاني في تركيا باسم « البنك الاهلي التركي » وكان هو احد اعضاء مجلس الادارة فيه . وفي عام ١٩١٢ م جمع غولبنكيان ألالمان ومجموعة شل والبريطانيين في « شركة النفط التركية » على ان يكون للبنك الاهلي التركي نصف اسهم الشركة بينما يقتسم الالمان ومجموعة شل النصف الباقي بالتساوي . ويحصل غولبنكيان في هذه الحالة على ١٥ بالمائة تحسب من حصة البنك الاهلي التركي (البريطاني) الذي كان عضوا في مجلس ادارته .

الى هنا والبريطانيون يملكون نصف المصالح البترولية في العراق او بالاحرى ٣٥ بالمائة منها اذا استثنينا حصة غولبنكيان . في خلال ذلك كانت قد حصلت

تطورات خطيرة في اهمية البترول بالنسبة لبريطانيا . وليام نوكسي دارسي حاول بيع مصالحه البترولية لروتشيلد او الاميركيين فحثته الحكومة البريطانية على ان لا يفعل ذلك . وبعد اكتشاف النفط بكميات تجارية في ايران عام ١٩٠٨ تكونت على الاثر في عام ١٩٠٩ م شركة جديدة تحمل اسم الانجلو فارسية ساهمت فيها شركة نفط بورما البريطانية بمليون جنيه وذلك لاستغلال الاكتشاف الجديد .

في عام ١٩١١ تولى ونستون تشرشل وزارة البحرية البريطانية وبدأ عهده ببناء ٥٦ مدمرة و٧٤ غواصة تعمل بالنفط . وبدأ تشرشل سلسلة من الاعمال لدخول الحكومة البريطانية كشريك مسيطر في شركة الانجلو فارسية فاشترت الحكومة البريطانية حصة السيطرة بمليوني ومائتي الف جنيه وعقدت مع الشركة الجديدة (التي اصبح اسمها فيما بعد بريتش بتروليوم) اتفاقية لتزويد البحرية البريطانية بالنفط لمدة عشرين سنة .

وامتدت اعين الشركة الانجلو ـ فارسية الى العراق فتدخلت الحكومة البريطانية وجعلت البنك الاهلي التركي (البريطاني) يتنازل عن حصته كلها في شركة النفط التركية للشركة الانجلو ـ فارسية . وتم اقصاء غولبنكيان وتخليصه من حصته البالغة ١٥ بالمائة من المصالح البريطانية لولا ان الالمان ومجموعة شل قد تنازل كل منهما عن ٢،٥ بالمائة من حصته لغولبنكيان « تقديرا لجهوده » السابقة مع الحكومة التركية . وتقدم السفيران البريطاني والالماني بمسودة اتفاقية عام ١٩١٤ م الى الحكومة العثمانية للحصول على استغلال النفط في الموصل وبغداد للشركة الجديدة باسم شركة النفط التركية وصدر الامتياز المطلوب .

في نفس العام وقبل شهرين من اندلاع الحرب العالمية الاولى تقدم ونستون تشرشل أمام البرلمان البريطاني بالاتفاقية الخاصة بسيطرة الحكومة البريطانية على الشركة الانجلو ـ فارسية ونال موافقة البرلمان على تلك الصفقة . وبذلك كانت الحكومة البريطانية قبيل الحرب العالمية الاولى تسيطر سيطرة تامة على المصالح البترولية في ايران وفي الوقت ذاته على نصف المصالح البترولية في العراق . وعند قيام الحرب في آب ـ اغسطس من ذلك العام سارعت بريطانيا الى احتلال العراق من العثمانيين الذين كانوا يتحالفون في الحرب مع الالمان . وباحتلال العراق صادرت بريطانيا الحصة الالمانية في « شركة البترول التركية » فاصبحت بذلك تسيطر على ٧٥ بالمائة من المصالح البترولية في العراق ، او على الاصح ٧٢،٥ بالمائة اذا ما احتسبنا حصة غولبنكيان وبقيت مجموعة شل الهولندية تسيطر على ٢٢،٥ بالمائة . في عام ١٩١٥ م تخلى مدير شل وصاحب معظم اسهمها عن جنسيته الهولندية وحمل بدلا منها الجنسية البريطانية . وربما انه قد فعل ذلك لحماية حصته لئلا تبتلعها بريطانيا !

في عام ١٩١٥ م ايضا وصل الى الدوحة في قطر المعتمد السياسي البريطاني في الكويت ودخل في « مفاوضات » مع الشيخ عبد الله بن قاسم ال ثاني حاكم قطر حول معاهدة جديدة مع بريطانيا . ولم يكن من السهل على الحاكم الشيخ عبد الله ان ينزل على طلبات المعتمد المفاوض . الا انه لم يكن له خيار كبير في الموضوع . فقد كانت السيطرة البريطانية في الخليج قد اصبحت تامة تقريبا والحرب قائمة ولكن الدول الكبرى المناوئة لبريطانيا بعيدة . واستمرت المفاوضات التي وصفها المعتمد البريطاني بأنها « حادة » عاما كاملا الى ان وقعتها قطر تحت تلك الظروف في تشرين الثاني — نوفمبر ١٩١٦ م وهو نفس العام الذي اضطرت فيه قطر الى التخلي عن استقلالها بتوقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا .

مثلما كان الشيخ قاسم بن محمد ال ثاني الى جانب ابيه في توقيع معاهدة ١٨٦٨م والتي عمل فيها بعد على الغائها بالممارسة ، كذلك كان الشيخ « حمد » الى جانب ابيه الشيخ عبد الله عند توقيع المعاهدة الجديدة . وكان يتحلى بروح جده الشيخ قاسم ومزاياه من الواقعية والمرونة الى جانب الحرص على الاستقلال والاعتماد في قوته على الشعب .

نزع الشيخ حمد بن عبد الله الى القيادة مبكرا فاستعان به والده وجعله مستشاره الاول وساعده الايمن في شؤون الحكم . وكان حمد محببا الى الناس قريبا منهم متمسكا بالدين على معرفة بالشريعة الاسلامية يستمد منها اصول الحكم في القضايا ويشبه في ذلك جده الشيخ قاسم الذي كان قاضي الناس وخطيبهم ومفتيهم .

وقد عاش الشيخ حمد السنوات الصعبة من ضياع الاستقلال وانهيار التجارة التي كانت تستفرد بها سفن قطر دون سائر سفن الخليج الى انهيار صناعة اللؤلؤ الاصطناعي .

ولم يكن من مجال كبير امامه لكي يفعل ما فعله جده الشيخ قاسم وانما كان كل ما يستطيع فعله هو الاحتفاظ بالشعلة في صدره وصدور بنيه وتمكين اهل قطر من الصمود للمحنة بأن يضرب هو بنفسه المثل على هذا الصمود . فكان يكتفي بالقليل القليل في معيشته ويزهد في الدنيا وزيناتها وشاراتها ويدعو الناس الى التمسك بالايمان . وكان بابه مفتوحا للناس يلجأون اليه بشكاواهم ومشكلاتهم ويعتبرونه ملاذا لهم .

في عام ١٩٣٠ م وصل الى الدوحة ممثل للشركة الانجلو — فارسية وحصل من الشيخ عبدالله بن قاسم الحاكم على اذن لمدة سنتين للتنقيب عن النفط في هذه البلاد « المقفرة الموحشة » حسب تعبير احد رجال النفط البريطانيين. وانتهى المسح الاولي عام ١٩٣٣ م .

بين عام ١٩١٦ وهذا الوقت بدات تظهر قوى دوليه جديدة ومصالح دولية اخرى في الخليج الى جانب بريطانيا . روسيا ابتعدت واستبعدت كليا بعد خروجها من الحرب العالمية الاولى وكشفها لاتفاقيتها السرية مع

بريطانيا وفرنسا المعروفة باتفاقية سايكس — بيكو ، لاقتسام تركة الدولة العثمانية . ولكن فرنسا بقيت الى جانب بريطانيا تشاركها بعض الامتيازات فقد كانت اتفاقية سايكس — بيكو تقضي بأن تقع ولاية الموصل ضمن حصة فرنسا عند اقتسام تركة الدولة العثمانية . ولكن فرنسا تخلت لبريطانيا عن ولاية الموصل بموجب معاهدة سان ريمو عام ١٩٢٠ م لقاء خمسة وعشرين بالمائة لفرنسا من نفط الموصل .

ودخلت اميركا الحلبة كشريك جديد في استغلال حقول النفط الغنية نتيجة اسهامها اسهاما كبيرا في نصر الحلفاء خلال الحرب . وهكذا اجتمعت المصالح البريطانية والفرنسية والاميركية والهولندية (وغولبنكيان طبعا) على مائدة واحدة عام ١٩٢٢ لاعادة تقسيم حصص النفط . وتم الاتفاق على ان تنال كل من بريطانيا واميركا وفرنسا وشل الهولندية ٧٥ و ٢٣ بالمائة من اسهم شركة نفط العراق ، على ان يحتفظ غولبنكيان بحصته البالغة خمسة بالمائة .

واراد الاميركيون ان يبقى الباب امامهم مفتوحا في بقية المناطق وكذلك امام غيرهم للمنافسة . ولكن الفرنسيين وغولبنكيان اصروا على ان يكون اي امتياز جديد في اراضي الدولة العثمانية المغلوبة من حق جميع الفرقاء حسب معادلة التقسيم في العراق على ان تكون المنافسة حرة ومفتوحة في الاراضي التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية .


كانت ثمة مشكلة تحديد الاراضي التي كانت تخضع للدولة العثمانية . فمن الذي يستطيع تحديد هذه الاراضي في وقت كانت الدولة العثمانية تحتفظ بالسيادة الاسمية احيانا على مناطق ليس لها فيها ناقة ولا بعير . واجتمع كل الفرقاء الجدد في مدينة اوستند في بلجيكا عام ١٩٢٨ لتحديد اراضي الدولة العثمانيه السابقة . وبدأ ان المؤتمر سيفشل بسبب عدم الاتفاق على خارطة وحدود الدولة العثمانية . عندها ، كما يذكرون ، خطرت فكرة لغولبنكيان .

فطلب خارطة كبيرة للشرق الاوسط ووضعها على الطاولة وتناول قلما احمر سميكا ورسم به خطا عليها وقال : « هذه هي الامبراطورية العثمانية كما عرفتها عام ١٩١٤ . وانا اعرف الناس بها لانني ولدت فيها وعشت وخدمتها . فمن كان منكم يعرفها اكثر مني فليتفضل » .

وانكب الاعضاء على الخارطة ينظرون فيها الى الخط الاحمر الذي صار شهيرا فيما بعد تحمل اسمه اتفاقية الخط الاحمر . وارتسم البشر على وجوه الاميركيين حينما راوا الكويت خارج الخط الاحمر وهي المكان الذي كانوا يستزمون ان يبحثوا عن النفط فيه . وارتسم البشر على وجوه البريطانيين الذين راوا البحرين وقطر وكل مشيخات الخليج واماراته داخل الخط الاحمر .

يبدو ان هذا الخط على اي حال لم يكن حاسما ولم يستعمل الا حينما كانت الدولتان الكبيرتان بريطانيا واميركا تريان حاجة اليه . فالاميركيون حصلوا





على امتياز للتنقيب عن النفط وحدهم في البحرين وكذلك في الاراضي السعودية الواقعة على الخليج وقاسموا البريطانيين نفط الكويت . وكان الاميركيون منافسين اقوياء للبريطانيين منذ البداية .

ولعل خوف بريطانيا من النزعة القطرية التقليدية في محاولة الاستفادة من موازين القوى هو الذي دفع بها للاسراع بارسال ممثل عن الشركة الانجلو فارسية عام ١٩٣٠ للحصول على اذن بالتنقيب . ولعل الاميركيين الذين اكتشفوا النفط في البحرين قد وجدوا فرصتهم لفعل الشيء ذاته في قطر طالما ان الخط الاحمر لم يكن ملزما الى ذلك الحد في العلاقات بينهم وبين البريطانيين .

تنبهت المصالح البريطانية الى الخطر فقامت شركة بترول العراق الممثلة لمجموعة المصالح البريطانية والاميركية والفرنسية والهولندية بارسال ممثل اخر عنها الى الشيخ عبدالله بن قاسم على اساس ان هذا الممثل هو ممثل الشركة الانجلو ـ فارسية وذلك حتى لا يشك الشيخ عبدالله في امر هذه الشركات المختلفة الاسماء والممثلين وحتى لا يكتشف التناقض بين المصالح فيحاول الاستفادة منه . وقام المقيم البريطاني في « بوشهر » في الوقت ذاته « بنصيحة » الشيخ عبدالله بمنح الامتياز « لشركة بريطانية » وعدم اعطائه للاميركيين .

كان البريطانيون يجدون الشيخ عبدالله «بطيئا» وكثير الشكوك . وان هذا لما يشهد له ولولي عهده الشيخ حمد بالحكمة في ذلك الوقت بالرغم من فقر البلد وحاجته الى المداخيل العاجلة . وامام بطء الشيخ عبد الله في منح الامتياز البترولي لممثل الشركه الانجلو ـ فارسية لم يجد البريطانيون بدا من تغيير المفاوض البريطاني الذي وصف بأنه « متقيد » باداب اللياقة واستبداله بمفاوض اخر اكثر « صراحة » في التلويح بشروط معاهدة ١٩١٦ . وهكذا حصل هذا المفاوض الاخير على الامتياز في أيار ـ مايو ١٩٣٥ للشركة الانجلو ـ فارسية حيث نقل هذا الامتياز فيما بعد بقليل الى شركة بترول العراق . وتكونت شركة بترول قطر التي هي نفس تركيبة شركة بترول العراق .

كانت مدة الامتياز خمسة وسبعين عاما تغطي ما مساحته اربعة الاف ميل مربع هي مساحة قطر البرية . ووضعت احكام في صك الامتياز لاعفاء الشركة كليا من الجمارك والضرائب واعطائها الحرية الكاملة في البناء والعمل . كل ذلك لقاء ثلاث روبيات كعائدات عن الطن الواحد من البترول او ما يوازي اربع شلنات استرلينية . ولكن انتاج النفط لم يبدأ قبل عام ١٩٤٩ . وفي الفترة من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٧٦ اي خلال ٢٧ سنة فقط من بدء انتاج البترول كانت دولة قطر قد استعادت استقلالها كاملا وملكيتها الكاملة لشركات البترول العاملة فيها . ففي الثالث والعشرين من كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٧٥ اعلنت حكومة قطر رسميا رفع حصة ملكيتها في شركة بترول قطر وشل قطر من ستين بالمائة الى مائة بالمائة . واتبعت ذلك في عام ١٩٧٦ باستكمال المفاوضات مع الشركات لتنفيذ هذا الاعلان .

الفصل الثالث

بين الحاضر والمستقبل

قطر الدولة والشيخ خليفة بن حمد آل ثاني الامير كانـا وكانهما علـى موعد واحد مع الاستقلال . وعندما استعادت قطر استقلالها رسميا لم يكـن ثمة شعور في البلد بأن انتقالا مفاجئا من مرحلة الى اخرى قد حـدث ذلك لان البلد لم ينقطع يوما عن الممارسات الاستقلالية التي اصبحت بمجموعها تكون الاستقلال الفعلي الذي لم ينقصه الا الاعلان الرسمي .

ولكن المرحله الجديدة كانت تتخفى عن امر جديد اكبر مـن كل مـا حدث في قطر حتى الان . كانت المرحلة تحمل رؤى بالنسبة للدولة وتطورهـا في المجالات الداخلية والخارجية مما لم يكن يخطر علـى بال الكثيرين . وقـد اقبل الشيخ خليفة علـى المرحلة الجديدة بكـل ما تجمع له مـن تجارب وكل ما في صدره من احلام وآمال .

في المجال الداخلي ، كانت قد توفرت حرية اكبر في الحركة بعد انتهاء ما يسمى « بالازدواجية » في السلطة العليا ولم تعـد القـرارات والمراسيـم الضرورية تتأخر او تتراكم . وفي المجال الخارجـي اصبحت حرية الحركـة كاملة لكي تمضي دولة قطر فتحتـل المكان الذي تعتقد انـه من حقهـا في منطقة الخليج والعالم العربي والعالم .

البعض يجنحون الى التبسيط الشديد بالقول ان البترول والمداخيـل البترولية قادرة على فعل كل شيء . ومع ضرورة هذه المداخيل الا انها وحدها بدون العنصر الانساني وما فيه من خصال ومطامـح لا تستطيـع ان تفعـل الكثير . بل ان الثروة المفاجئة بالنسبة للامم والشعوب هي مثلها بالنسبـة للافراد قد تتحول الـى نقمة اذا لم يحسن استعمالها .

وقد لاحظنا من خلال تاريخ قطـر ان اهـل شبه الجزيرة هـذه كانـوا يتمتعون علـى مر العصور بصفات رئيسية ثلاث . اولى هـذه الصفـات هي الاستقلالية والمحافظة وحب التفرد . ولعـل هذه الصفة تنبـع اساسا من التكوين الطبوغرافي والموقع الجغرافي للبلد كشبـه جزيـرة معزولـة نسبيا عن امكنة تقاطع التيارات الضخمة وتصارع القوى الغازية . وعلى هذا الاساس استطاع اهل قطر ان يمارسوا الاستقلال الفعلي في تاريخهـم حتى في الاوقات التي كانـت فيها بلادهم جزءا مـن دولة اكبر .

أما الصفة الثانية ، وهي ترتبط كثيرا بالصفة الاولى وتتأثـر بها فهـي تجانس اهل البلد وتقاربهم الشديد . هذه الصفة التي اعطتهم انتماء جغرافيا في الكثير من الاحيان بالاضافة الى انتماءاتهم القبليه جعلت الكثير من الزعماء الذين ظهروا في شبه الجزيرة يستفيدون منها في جمع اهـل قطر حولهـم . وقد استفاد الشيخ قاسم بن محمد كما راينا من هـذه الصفة بشكـل خاص في ترسيخ ممارساته الاستقلالية ودرء الاخطار الخارجية عن قطر ..

الصفة الثالثة التي يتمتع بها سكان قطر تبدو علـى النقيض من الصفتين الاولبين وهي في الواقع ما هي الا تكميل لهما وهي النزعـة نحو المشاركـة والاتحاد والانتماء الى أمة اكبر . فمع التفرد والاستقلالية لا يشعر القطريون ان انتماءهم الوحيد هو الى قطر وانما هم يشعرون بالانتماء العميـق الـى

منطقة الخليج والى الامة العربية والاسلامية . ولو لم تكن هذه الصفة موجودة بالاضافه الى الصفتين الاوليين لما كان ثمة توازن في شخصية البلد واهله . وقد عبرت هذه الصفة عن نفسها في اولى مواد النظام الاساسي المؤقت لدوله قطر حينما اعلن ان « قطر دولة عربية مستقلة هي جزء من اتحاد الامارات العربية . » ثم عدلت هذه المادة بعد تعثر الاتحاد التساعي لتقول : « ان قطر دولة عربية مستقلة ذات سيادة ونظامها ديمقراطي وشعبها جزء من الامة العربية . »

وجاء في النظام الاساسي ان من المبادىء الاساسيه الموجهة لسياسة الدولة هو انها « تؤمن باخوة جميع العرب وتوجه كل جهودها لتدعيم روابط التضامن مع الدول العربية الشقيقة في خدمة القضايا والمصالح العربية وهي تدعم دعما كاملا جامعة الدول العربيه وان سياستها الخارجية تهدف الى تقوية روابط الصداقة مع الدول والشعوب المحبة للسلام عموما على اساس من الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وتلتزم الدولة بمبادىء ميثاق الامم المتحدة . »

في الماضي شارك سكان قطر في حضارة ديلمون وكانوا جزءا منها مثلما شاركوا في الحضارات التي نشات شمالا وجنوبا وشرقا وغربا واخذوا منها واعطوها . وسترى كيف ان هذه الصفة تفعل فعلها في حاضر قطر ومستقبلها .

بالاضافة الى هذه الصفات المتوارثة في قطر منذ اقدم العهود هناك صفة عصرية مكتسبة تعلمها الشيخ خليفة خلال تجاربه الطويلة وعمله وصار يؤمن بها كما صارت احدى صفاته الملازمة المميزة الا وهي الايمان بالتخطيط المدروس وترتيب الاوضاع الحاضرة من اجل وضوح الرؤية المستقبلية . ومنذ تولي سلطاته الدستورية في البلد كرئيس للدولة كان يبدو وكأنه قد امضى سنين عديدة وهو يضع خرائط عديدة للبلد سياسية وسكانية وطبوغرافية واقتصادية واجتماعية ، الواحدة منها فوق الاخرى للحصول على خارطة مجسمة تماثل الواقع يمكن منها الانطلاق الى المستقبل .

مثلا في الفترة ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٢ قامت دولة قطر باجراء مسح طبوغرافي دقيق وتفصيلي للبلد وصفته جريدة التايمس اللندنية بأنه ربما كان افضل شيء من نوعه في منطقة الشرق الاوسط كلها . ومع أن مثل هذه الخرائط هي مما يعتبر شيئا مفروغا منه في الدول المتقدمة لضرورتها لاي عمل تخطيطي للتطوير الا انها في معظم الدول النامية لا تتوافر بالدقة والتفصيل اللذين يجب ان تتوافر بهما .

وتأتي اهمية هذه الخرائط الطبوغرافية في مساعدتها على تسريع حركة التطوير العمراني وبناء الهيكل التحتي اللازم كقاعدة للصناعة . فمثلما تساعد الحدود السياسية الواضحة على تكوين علاقات جوار واضحة ومفهومة كذلك تساعد الخرائط الطبوغرافية الواضحة على تصور تطور واضح ومفهوم ذي اهداف محددة .

الخارطة السياسيّة الداخليّة

غير انه ربما كان اهم ما يشغل بال امير دولة قطر في السنة الاولى من الاستقلال هو تجسيد خارطة سياسية داخلية للتخفيف من التناقضات فيما بينها ولكي تعمل متعاونة على بناء البلد وتطويره .

لا يمكن القول بالطبع ان البلد كان خاليا من اي نظام سياسي داخلي قبل وضع النظام الاساسي المؤقت . غير ان ذلك النظام كان يعكس وضعا اقتصاديا واجتماعيا مختلفا كما انه كان قد نشأ وترعرع منذ عهد ثاني بن محمد بالممارسة والتراكم والتعارف . وقد بات من الضروري وضع فلسفة ورسم ملامح عصرية لنظام الحكم في البلد تكون متوائمة مع روح العصر وغير منقطعة عن الممارسات المألوفة .

من هنا كان اول ما اعلنه النظام الاساسي المؤقت ان قطر « نظامها ديمقراطي » . واخذ الشيخ خليفة يوضح بالقول والفعل معنى الديمقراطية كما يفهمها القطريون . في المرحلة الاولى انشأ الشيخ خليفة مجلس للشورى يختار اعضاءه العشرين من « اصحاب الكفايات » في البلد . ولم يقفز الى « مجلس امة » يختار اعضاؤه بالانتخابات لاسباب عديدة منها عدم وصول الناخبين بعد الى تلك المرحلة من النضج الاجتماعي والسياسي والوعي الاقتصادي بحيث يختارون ممثليهم اختيارا صحيحا . وقد قال الشيخ خليفة ان الديمقراطيه البرلمانية هي مرحلة متقدمة تسير جنبا الى جنب مع تطور اقتصادي مماثل يكون قاعدة لها . وبدون ذلك يمكن ان تحدث نكسة للديمقراطية نتيجة الممارسات الخاطئة لها . « وضمانا لحسن ممارسة الحريات والحقوق العامه في هذه المرحلة الانتقالية التجريبية » اعطى مجلس الشورى الطابع الاستشاري ليعبر عن رايه في شكل توصيات للحكومة . اما امارة الدولة فقد كرسها النظام الاساسي المؤقت في اسرة آل ثاني الحاكمة حيث يكون الامير المرجع الاخير في شؤون الدولة .

واعلن الشيخ خليفة ان حجر الاساس في برنامجه هو تطوير الانسان القطري والاقتصاد . وقال ان « الانسان في بلدنا هو وسيلة كل تطور وهو ايضا الغاية من كل ازدهار » . كما ان النظام الاساسي المؤقت قد ضمن تكافؤ الفرص الاقتصادية والاجتماعية معطيا بذلك تفسيرا آخر لمعنى الديمقراطية حسب المفهوم القطري . وقد ضمن هذا النظام التعليم كحق من حقوق المواطن على الدولة كما تعهدت بموجبه الدوله بأن تجعل التعليم الزاميا ومجانا في جميع مراحله للمواطنين . ومن المبادىء المهمة في هذا النظام المساواة التامة بين جميع الافراد في الحقوق والواجبات دون تمييز على اساس العنصر او الجنس او الدين .

ربما اثبت الشيخ خليفة بن حمد بعد نظره في مسالة التطور التدريجي نحو الممارسات البرلمانية المعاصره . فبعد اربع سنوات من الاستقلال

وفي وقت كانت فيه مجالس الامة في بعض الدول الشقيقة في المنطقة تعاني من نكسات خطيرة وتقهقر كان الشيخ خليفة يقف امام مجلس الشورى ليعلن ان النظام الاساسي المؤقت سيعدل ليسمح بزيادة صلاحيات مجلس الشورى وزيادة عدد اعضائه . وقال : « ان أحد المبادىء الاساسية لدولتنا الفتية هي تحملنا للمسؤولية كأفراد وجماعات . ولكن تجارب البلدان الاخرى تعلمنا ان افضل الوسائل لتنظيم تحمل المسؤوليات وممارسة الحقوق هي بالتطور التدريجي المدروس . وبذلك نضمن الاستقرار . » وقال : « ان هذه التجارب تعلمنا أيضا ان النظام السياسي الصحيح في اي بلد ليس هو ذلك النظام الذي يتميز سطحيا بالمزايا النظرية ولكنه ذلك النظام الذي يلبي الحاجات الحقيقيه للبلد ويستطيع البلد ان يستوعبه . ان دولتنا تؤمن بضرورة تحديد الاحتياجات والتحقق من الامكانيات حتى نتمكن من التعامل بالحقائق وارساء النظام العام على اساسها وليس على اسس انظمة نشأت في ظروف تختلف كليا عن ظروفنا او تجارب غريبة عنا » .

وثبة التقدم

بعد عام من توليه مهام سلطاته الدستورية كأمير للبلاد وجه الشيخ خليفة رسالة الى الشعب تعد في حد ذاتها وجها آخر من وجوه الممارسات الديمقراطية حسب المفهوم القطري . فقد كانت الرسالة عبارة عن تقرير الى الشعب مباشرة عما تم تحقيقه خلال عام من انجازات وبرنامج عمل . وقراءة هذه الرسالة تغنينا عن توضيح مجسم خارطة قطر الاقتصادية والاجتماعية في ذلك العام انطلاقا نحو المستقبل . قال الامير :

« ايها الاخوة . لقد توليت منذ عام مضى بتوفيق الله واستنادا الى ثقتكم الغالية مسؤولية الحكم وحملت امانة تبعاته الجسام . ولقد كان منهاجي منذ اللحظة الاولى يقوم على ما عاهدت الله عليه ان ابدأ معكم عهدا نواصل فيه، بكل ما نملك من قوه وبكل ما نستطيع من جهد مسيرتنا المشتركة نحو هدفنا السامي الذي طالما تطلعنا اليه وعملنا معا على تحقيقه الا وهو بناء دولة مزدهرة مستقلة ، قوامها الدين والاخلاق وعمادها العلم والعمل ، واساس حكمها العدل والنظام » .

« ولقد كنا نشعر جميعا في ذلك اليوم ان الواجب يقتضينا ان نسارع الى ادراك ما فاتنا والتوفر على تجميع وتنظيم طاقاتنا لمتابعة التقدم بخطى مدروسة نحو الموقع الرفيع الذي نرجوه لبلدنا بين بلاد العالم المتحضرة ، لا سيما بعد ان تحققت لنا أمنيتنا العظمى وهي استكمال استقلالنا وسيادتنا واسترداد السيطرة التامة على مقدراتنا » .

ايها الاخوة

« انه ليسعدني ان اتوجه اليكم بتحية الشكر والتقدير لما ابديتموه من تعاون مثمر فعال معنا ، وتأييد كلي للجهود الموصولة التي بذلتها حكومتكم خلال

السنة الاولى من هذه المرحلة التاريخية على طريق العمل والاصلاح ، اداء لرسالتنا في تحقيق رفعة وطننا ورفاه ابناء شعبنا » .

« ولا مراء في ان سنة واحدة لا تعد شيئا يذكر في عمر الامم . ولكن استعراض ما تم من خطوات في هذه الفترة الوجيزة جدير بأن يمكننا من تقييم انجازاتنا للتثبت من سلامة تحركنا نحو تحقيق اهدافنا » .

وليس من شك في ان تلك الانجازات لم يكن في الامكان اتمامها في سنة واحدة ؛ لولا انها ارتكزت على اسس التنظيم العام للدولة التي بدات في ارسائها قبل اكثر من اثني عشر عاما ، وبذلت كما تعرفون الجهد الجهيد في التخطيط لها وتعزيزها على مدى تلك الاعوام لتكون قادرة على حمل المراتب المتصاعدة للنهضة الشاملة التي تنشدها لشعبنا في جميع الميادين .

« وانه ليحق لنا — من قبيل التحدث بنعمة الله — ان نعتز بحقيقة نراها جميعا امامنا واضحة المعالم ، وهي مواصلتنا العمل البناء خلال العام الذي انقضى ، اثمرت انجازات كبرى شملت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والادارية في البلاد . وكانت خطوة واسعة الى الامام في سبيل تركيز دعائم نهضتنا وتثبيت كياننا المستقل على كل صعيد » .




THE 49TH
MEETING OF THE
MINISTERIAL
CONFERENCE
OF OPEC

« فعلى الصعيد الداخلي ، وفي مجال التنظيم السياسي ، وعملا بمبدأ الشورى مع مراعاة مقتضيات سنة التطور تم انشاء مجلس الشورى ليعاون برأيه على معالجة شؤون الدولة في مختلف النواحي ، ويساهم بمشورته في تهيئة وسائل تحقيق نهضة البلاد . ولقد اثبتت هذه التجربة الاولى من نوعها في بلدنا فائدتها العملية الكبيرة كمرحلة انتقالية تهدف الى التمهيد التدريجي للافادة ، في اوسع نطاق ممكن ، من المشاركة البناءة للقادرين من مواطنينا في ادارة شؤون وطننا » .

« في ميدان التنظيم الحكومي تم انشاء وزارتي الشؤون البلدية والاعلام . كما تم تشكيل مجالس بلدية في مدينة الدوحة وخارجها لتصريف الشؤون البلدية بما يكفل النهوض بالمستوى المحلي ويؤمن راحة المواطنين والاعتناء بمدنهم وقراهم . وسيتم انشاء جمعيات تعاونية استهلاكية تسهل للمواطنين عملية شراء حاجياتهم واستقرار اسعارها » .

« وعملا بسياسة الدولة التي تهدف الى وضع المواطن القطري المناسب في المكان المناسب ، شكلت بقرار من مجلس الوزراء لجنة تخطيط للبعثات الدراسية الجامعية والعليا ، بقصد اعداد القطريين المؤهلين لشغل الوظائف في كل من القطاعين العام والخاص » .

« وفي مضمار التنظيم المالي ، انشيء مجلس للاستثمار لرسم خير السبل الكفيلة باستثمار احتياطي الدولة على أفضل وجه ورقابة وسائل تنميته والضمانات المتعلقة به . كما صدر قرار من مجلس الوزراء بانشاء ديوان المحاسبة الذي عهد اليه بمراقبة أموال الدولة ومراجعة حساباتها . وصدر القانون المنظم لاضطلاع هذا الديوان باختصاصاته المختلفة . كما ونعمل الان على انشاء مؤسسة نقد قطرية ستتولى اصدار العملة الجديدة ، والتي سيكون من مسؤوليتها مراقبة نشاط البنوك العاملة في البلاد » .

« وفي المجال الاقتصادي ، تابعت الدولة جهودها لتطبيق سياستها في الانماء الاقتصادي والتوسع الصناعي على اسس علمية مدروسة ، ضمانا لتحقيق المزيد من الازدهار في البلاد واطراد العيش الكريم للمواطنين وتوفير فرص العمل لهم . وفي هذا الصدد تم انشاء المركز الفني للتنمية الصناعية بهدف التعاون مع الاجهزة الحكومية المختصة الاخرى في اعداد خطط ومشروعات التصنيع لاستغلال ثروات البلاد الطبيعية بما يتلاءم مع موارد الدولة واحتياجاتها ومتابعة تنفيذ تلك الخطط والمشروعات . وتجري الدراسات الفنية اللازمة للتوسع في استغلال موارد الدولة الطبيعية . فالى جانب المصانع القائمة حاليا ، هناك مصنع للاسمدة سيباشر انتاجه قريبا . وهناك مصنع تسييل الغاز الطبيعي الذي سيبدأ عمله في اوائل العام المقبل . ومصفاة تكرير البترول التي ستباشر في تغطية حاجات البلاد من المحروقات في نهاية هذا العام » .

« كما وانشئت منطقة سكنية في مدينة ام سعيد الصناعية توفرت فيهـا جميع المرافق العامة اللازمة لسكنى الموظفين العاملين هناك مع عائلاتهم . ولقد بدات الدراسات لانشاء صناعات اخرى في البلاد تستهدف تنويع مصادر الدخل ، وتم انشاء شركة قطر الوطنية للبترول لمارسة كافة العمليـات في مراحل صناعة البترول داخل الدولة وخارجها ، وادارة كل ما يوكل اليها من مشروعات استثمار بترولية . ولقد كانت هذه الخطوة من جهة اخـرى خطوة اساسية يتطلبها تنفيذ اتفاقيات المشاركة التي تم ابرامها مع شركـات البترول العاملة في قطر ، تلك الاتفاقيات التي تهدف الى السيطرة علـى مواردنا الطبيعية بالاضافة الى زيادة دخلنا القومي من هذه الموارد » .

« وفي مجال العمران تم التعاقد مع مؤسسة عالمية تقوم الان باجراء مسح شامل لاعادة تخطيط مدينة الدوحة والمدن الاخرى في البلاد . وستنتهي هذه المؤسسة من دراساتها في منتصف هذا العام بحيث تقدم لنا خطة اعماريـة عامة لتخطيط المدن للعشرين سنة القادمة . وقد انشئت في البلاد خلال العام المنصرم شبكة طرق كبرى يبلغ طولها مائة واربعين كيلومترا . ويجري العمل على انشاء طرق اخرى يبلغ طولها مائة وخمسة وسبعين كيلومترا سيتـم اكمالها خلال هذا العام . وبذلك يتحقق ربط جميع أطراف الدولة بعضهـا ببعض وبالدول الشقيقة المجاورة » .

« وفي قطاع التربية والتعليم قامت حكومتكم بوضع الاسس لانشاء كلية للمعلمين واخرى للمعلمات كخطوة اولى نحو انشاء جامعة قطرية سنضعهـا باذن الله في خدمة ابناء منطقة الخليج على وجه العموم . وحرصا منا علـى التوسع في توفير فرص التعليم لاجيالنا الصاعدة ، تم انشاء احدى عشـرة مدرسة ابتدائية واعداديةوثانوية هذا العام موزعة على مختلف انحـاء البلاد ، كما ستنشأ اثنتا عشرة مدرسة اخرى في العام المقبل بحيث سيبلـغ عدد الطلاب الذين يتلقـون العلم في مدارس الحكومـة ستة وعشرين الـف طالـب وحرصا منا علـى ان يلم شبابنا باكثر مـن لغة فقد قمنـا بانشـاء معهد لتعليم اللغات الاجنبية يتولى التدريس فيه نخبة من المدرسين الاكفاء ، وتم تزويده باحدث الاساليب العلمية بحيث يساهم في رفع كفاءة الموظفـين والموفدين لتلقي العلم في الخارج . ونظرا لاهمية التعليم الصناعي في دفـع عجلة التقدم في البلاد ، فقد بدأنا في توسيع مركز التدريب والتطوير المهنـي بحيث تضاف اليه اقسام جديدة ، وبحيث يكون قادرا على استيعاب المزيـد من الطلاب القطريين وابناء الخليج على حد سواء . « ولاهتمامنا برعايـة الشباب ، وحرصا منا على شغل اوقات فراغهم بضروب الرياضة المفيـدة وخلق جيل قوي منهم يضطلع بمسؤوليات المستقبل ، عقدنا العزم على انشاء مجمع رياضي كامل تتوفر فيه كافة الوسائل الضرورية لممارسة النشاطـات الرياضية بانواعها » .

« اما في مجال الصحه العامه ، فسنبدا في منتصف هذا العام في انشاء مستشفى جديد في الدوحة يتسع لستمائة سرير انشاء عدد من المستشفيات الكاملة التجهيز في مختلف المدن الرئيسية في البلاد لتيسير الحصول على العلاج الطبي والرعاية الصحيه اللازمة لكافة المواطنين . »

« وفي مجال تحسين وسائل الاتصال بين مختلف المدن القطرية ، وبينها وبين مختلف الاقطار في العالم ، انتهت حكومتكم من انجاز الدراسات اللازمة لتوسيع شبكة الهاتف الالي بحيث تصل الى مختلف المناطق ووضعت القسم الاكبر من مسؤولية تأمين الخدمات الهاتفيه على عاتق الحكومه » .

« ولما كان من الضروري ان تدخل قطر الحديثة مجال الانتفاع بما يسره العلم من اسباب الاتصال السريع المباشر بين دول العالم فقد بدأت الحكومة في اجراء الدراسات اللازمة لانشاء محطة ارضيه للاتصال بواسطة الاقمار الصناعية . ومن شأن هذه المحطة ان تلعب دورا هاما عند اتمامها في تيسير الاتصال الهاتفي مع جميع دول العالم وفي تطوير الخدمة التلفزيونية في البلاد تطويرا جذريا » .

« ولاقتناعنا باهمية الموانىء والمطارات في انعاش التجارة والسياحة ، ورغبة منا في تطوير هذه المرافق الحيوية بعد ظهور الاتجاه الى بناء سفن اكبر وطائرات ضخمة اتجهت نية الحكومه الى توسيع ميناء الدوحة بحيث يستطيع استقبال عدد اكبر من السفن ، فضلا عن الانشاءات التي تمت لتحسين الموانىء في مختلف ارجاء البلاد . ونظرا للتوسع العمراني الذي تشهده مدينة الدوحة ولكي تتمكن من استقبال طائرات ضخمة تعمل الحكومة على وضع الخطط لانشاء مطار دولي جديد في منطقة جديدة خارج مدينة الدوحة بحيث يضاهي عند اتمامه ارقى المطارات في منطقة الشرق الاوسط » .

« اما في مجال توفير وتحسين الخدمات والمرافق العامة المسخرة لراحة المواطن القطري فقد تم انشاء ستمائة وخمسين مسكنا مجانيا والف وثمانمائة وسبعين مسكنا شعبيا في مدينة الدوحة والمناطق الاخرى ، وقد تم اعفاء المنتفعين بها من بقية الاقساط وسلمت اليهم . وبذلك يكون مجموع المساكن التي منحت للمواطنين الفين وخمسمائة وعشرين مسكنا مجانيا ومائتين وخمسين مسكنا شعبيا قيد الانشاء . »

« وقد قامت الحكومة بوضع الترتيبات اللازمة لشراء مولدات جديدة سترفع الطاقة الكهربائية في العاصمه الى مائة الف كيلوات ، وذلك لمواجهة الاستهلاك المتزايد في الكهرباء . وايضا لشراء وحدات اضافية جديدة لتحلية مياه البحر تبلغ طاقتها القصوى عشرين مليون غلون يوميا من اجل مواجهة الزيادة المتصاعدة في استهلاك مياه الشرب نتيجة للزياده المطردة في السكان» .

« ونظرا لاهتمامنا بتطوير الوسائل الاعلاميه في البلاد بحيث تستطيع ان تؤدي واجبها في تثقيف المواطن وتوعيته وفي نقل صوت قطر الى ابعد ما يمكن ان يصل اليه هذا الصوت فقد عمدت حكومتكم الى التعاقد على شراء محطتين اخريين قوة كل منهما ٢٥٠ كيلوات على الموجة القصيرة وسيتم تركيب هذه

المحطات في اواخر هذا العام . »

« وتعبيرا عن اهتمامنا بحفظ التراث والتاريخ الحي الشاهد على عراقة هذا الشعب كي تطالعه اجيالنا باعتزاز وفخر فقد حرصنا على ارساء الاسس لانشاء متحف قطر الوطني الذي سيفتتح باذن الله في اوائل السنة القادمة وسيصبح عند انجازه ملتقى العلماء والدراسين الراغبين في التعرف على تاريخ بلادنا ومنطقة الخليج على مر العصور .

« اما بالنسبة للقوات المسلحة ، فقد عنينا وسنظل نعني بتدعيمها وتطوير اسلحتها وتعزيز فعاليتها لتظل دوما الدرع الواقي لسلامة الوطن والعين الساهرة على امن المواطنين .

« اما على الصعيد العربي فقد حرصنا اكبر الحرص علي تحقيق المزيد من توثيق اواصر التضامن مع جميع شقيقاتنا الدول العربية ايمانا منا بالاخوة التي تجمعنا بهم وبأن واجبنا الاول هو ان نساند بكل قوانا الجهد المشترك لخدمة قضايانا العربية الواحده » .

« وانني لعلى يقين بأن ترابط العرب ترابطا كاملا هو وسيلتهم لدفع ما لحق بهم من اذى كبير وبانه اذا كان الاجماع العربي منعقدا على أن تحرير الارض العربية المحتلة واسترجاع حق شعب فلسطين المغتصبة هما الهدف الرئيسي الراهن الذي ينبغي ان نسخر من اجله كل طاقاتنا وامكاناتنا ، فان تحقيق هذا الهدف مرهون بتعاوننا الصادق لتوحيد جهودنا وحشد طاقاتنا وامكاناتنا حيث لا وزن لوحدة الهدف اذا لم يقترن بوحدة الصف » .

« ولا ريب ان ما ترتكبه اسرائيل بمساندة القوى الاستعمارية الصهيونيه العالمية من عدوان على الحق العربي واحتلال بالقوة المسلحة للاراضي العربية وانتهاك المقدسات الدينية يشكل تقويضا لنظامنا الدولي وعصفا بكل ما يعتز به العالم المتحضر من قيم . لذلك فانني باسمكم اضم صوت شعب قطر الى صوت شعوب العالم المؤمنة بميثاق الامم المتحدة مناشدا المنظمة الدولية استخدام الوسائل التي وضعها الميثاق بين يديها لردع العدوان الاسرائيلي المسلح وتوفير حق « تقرير المصير لشعب فلسطين المشرد عن وطنه » .

« وعلى الصعيد الدولي ، وفي ظل مبادىء الامم المتحدة ووفقا لاغراضها النبيلة ، عنيت حكومتكم كل العناية بانتهاج سياسة خارجية تهدف الى توثيق اواصر الصداقة مع الدول والشعوب الاسلامية خاصة والدول الاخرى عامة مع العناية الخاصه ببذل كل جهد ممكن لتقوم علاقاتنا مع جيراننا في المنطقة على افضل قواعد التعاون وحسن الجوار . »

« ولقد عملنا على انتهاج سبيل الانفتاح على العالم الخارجي فتم لنا في هذا الصدد انشاء سبع عشرة بعثة دبلوماسيه مقيمة بالاضافة الى بعثتينا الدائمتين لدى الامم المتحدة وجامعة الدول العربية . »

« ولقد تولى ادارة سفاراتنا في الخارج نخبة من ابنائنا عهد اليهم بأداء

رسالة تمثيل بلدهم وتعريف العالم بانجازاته في مختلف المجالات . »

« اننا اذ نستعرض هذه الانجازات التي حققتها حكومتكم لا نفعل ذلك الا من قبيل التحدث بنعمة الله علينا وعليكم . ونحن مهما بذلنا في سبيل وطننا الغالي من جهد وعناء انما نؤدي امانة الوطن في اعناقنا ونقوم بواجب المسؤولية نحو بلدنا . واذا كان طريق العمل امامنا لا يزال طويلا فان تكاتفنا وترسيخ وحدتنا وتفانينا في سبيل المصلحة العليا ، كل ذلك كفيل بان يسهل علينا كل صعب وان يصل الى تحقيق كافة امانينا الوطنية باذن الله . »

« اسأل الله ايها الاخوة ان يهيء لنا جميعا من امرنا رشدا وان يسدد خطانا لما فيه رضاه وان يحقق لبلدنا كل ما يصبو اليه من امال وان يكتب لامتنا العربية النصر على اعدائها وان يجعل عملنا جميعا خالصا لوجهه انه اكرم مسؤول . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

بعد عامين من هذه الرسالة كانت للامير الشيخ خليفة وقفة اخرى لا تقل اهمية عن هذه الرسالة وان كانت تنطلق من نفس الروح . كان الشيخ منطلقا على سجيته في مقابلة صحفية تحدث فيها عن الواقع والمستقبل في احدى كبريات المجلات البيروتية. قال الشيخ :

ـــ هل زرت ام سعيد ؛ (ام سعيد هي المدينة الصناعية)

ـــ زرتها هذا الصباح . . لقد تحولت الى مدينة صناعية .

قال الشيخ خليفة :

« نحن لا نزال في البداية . فمن هذه المنطقة تستطيع ان تطل على مستقبل قطر . اننا ننطلق في سباق مع الزمن . نريد ان نبني قاعده صناعية تخفف من اعتمادنا على واردات النفط تدريجيا . انت تعرف ان البترول سينفد في يوم من الايام . فالتقديرات تقول ان ابار النفط ستنضب في مطلع القرن القادم . لن ينضب في عهدي بل في عهود الذين سيأتون بعدي . ولذلك فان من واجبي ان انتهي من بناء المجتمع الصناعي في قطر حتى تتحقق المصادر البديلة للدخل في النفط . ان الجيل المقبل هو امانة في عنقي ولن ادخر جهدا ولا وقتا ولا عافية من عمري في سبيل بناء المجتمع الذي سيجيء بعد النفط . فقطر مثل كل البلاد في العالم لا يمكن ان تتطور بدون ان يكون لها اقتصاد ثابت .

خبراء التنميه يقولون ان قطر في حاجة الى دخل قدره الف وخمسمائة مليون ريال ليكون لديها اكتفاء ذاتي . وانا اقصد هنا دخل الحكومة لا دخل البلاد .

بالاضافة الى التقديرات المبنية على اساس الوضع الراهن ، فكيف يمكننا توفير هذا الدخل السنوي عن غير طريق النفط ؟ الجواب عن طريق التصنيع . فلو فرضنا ان ارباح كل مشروع صناعي هي في حدود العشرين بالمائة فهذا يعني اننا نحتاج الى ٧٥٠٠ مليون ريال للاستثمار او ما يعادل العشرة الاف مليون ريال استثمار اجمالي . والمفروض ان تبني الصناعة

التي ستتكلف عشرة الاف مليون ريال خلال عشر سنوات فقط . وبعد لن يخيفني نضوب النفط . والمال ليس مشكلة لانه موجود ، ولكـن المشكلـة تتلخص في اربع حاجات رئيسية .

اولا — الخبرة اللازمة لاقامة المصانع .

ثانيا — الايدي الفنية اللازمة للادارة .

ثالثا — توفير الاسواق للمنتجات ، او بعبارة اوضح ضمان تسويق المنتجات وبيعها .

وفي رايي ان التسويق هو اهم الحاجات . عندما نضمـن الاسـواق يصبح كل شيء هينا . الخبرة والايدي الفنيه والمواد الخام يمكن شراؤها .

اما الاسواق فهي التي يجب ان نكون واثقين منها . في الماضي كان تفكيرنا يتجه الى اقامة مصنع للالمنيوم . بعد دراسة وضع الاسواق جديا وجدنا ان علينا اعطاء الاولوية لانشاء مصنع للحديد...فالمشاريـع توضع عندنـا الان كما توضع الخيول في السباق ، لا يمكن معرفة ترتيبها ولكن من المؤكد انها ستصل جميعا الى نهاية الشوط .

هناك حتى الان اكثر من عشرة مشاريع . المشروع الاول هو الذي حدثتك عنه : مشروع الحديد بطاقة تتراوح بين ١٥٠ الى ٣٠٠ الف طن في السنة .

٢ — مشروع لانتاج الالمنيوم

٣ — مشروع اقامة مصنع ضخم لتكرير البترول

٤ — جمع بتروكيماويات

٥ — مشروع لاستثمار الغاز البحري واحد لانتاج السوائل الغازية من الغاز المصاحب واخر لاسالة الغاز المصاحب .

٦ — مشروع لتنمية واستثمار الثروة السمكية سواء عـن طريـق انشاء مزارع لتربية الاسماك او انشاء اسطول بحري للصيد .

٧ — مشروع انشاء شركة لانتاج المواد الاستهلاكية مثل الصابون والكلينكس والمواد البلاستيكية والجلود والدهون التي يحتاج اليها السـوق من هذه المواد ما قيمته ٣٠٠ مليون ريال سنويا . فلو اقيمت مصانع صغيرة مجمعة تحت اشراف شركة واحدة يساهم فيها المواطنون والدولـة ففـي الامكان تواجد هذه المواد اولا وضمان الربـح منها ثانيا واستكمال البنـاء الصناعي ثالثا وليس اخيرا .

٨ — مشروع انشاء شركة بحرية للنقل.

٩ — مشروع لتوسيع مصنع الاسمدة الكيماوية .

١٠ — توسيع مصنع الاسمنت على مرحلتين ، المرحلة الاولـى بدات منذ ايام والمرحلة الثانية هي قيد الدرس . وكل هـذه المشاريع تحتاج الـى عملية استثمار ضخمة في مجالات انتاج الكهرباء والماء وتعبيد الطرق وبناء المساكـن .

قال الصحفي : الملاحظ ان معظم المشروعات الصناعية التي قمتم بها من قبل والتي تحدثتم عنها الان هي صناعات تعتمد على البترول او مشتقاته : الاسمده ، والغاز والتكرير حتى الاسمنت يعتمد على الغاز . مثل هذه الصناعات ستنتهي مع انتهاء النفط فماذا تكون قد فعلت وانت تريد ان تبني صناعة لما بعد النفط .

قال الشيخ : سينفد البترول ولكن الغاز سيستمر لمدة طويلة جدا ، فابار البترول تحول الى غاز عندما يستخرج منها البترول بالاضافة الى وجود حقول خاصة بالغاز . وهذه الثروه ستبقى مائة سنة على الاقل بعد البترول . ولذلك فان الصناعات التي اقيمها تعتمد على الغاز اساسا كمادة رخيصة تزودني بالوقود والمواد الخام وليس بالامكان التخطيط لابعد من مائة سنة ، فالامر بعد متروك للاجيال القادمة ، كل جيل سيخطط للجيل الذي بعده .

وسكت سمو الشيخ لحظات ثم استطرد قائلا : وهناك نقطة هامة يجب عدم الغائها من حساباتنا ، وهي ان الكلام عن نفاد البترول مبنى على القدر التكنيكيه المتوفرة الان في عمليات الانتاج . فالقول ان البترول سينفد بعد كذا سنة لا يعني ان البترول سينضب تماما ، هناك كميات كبيرة ستبقى تحت الارض وفي الامكان استخراجها في المستقبل عندما يتطور التكنيك ويصبح الانتاج عجزيا على الصعيد الاقتصادي . يجب عدم الخوف من نفاد البترول بالرغم من اننا سنقيم حساباتنا على اساس اسوأ التقديرات لنخطط لمجتمع صناعي قادر على ان يسير الى المستقبل بخطى اكثر ثباتا فوق الارض واكثر قدرة على المزيد من الاستثمار للموارد الطبيعية للبلاد . لقد اعتمدت بريطانيا في نهضتها الصناعية على مواردها من الفحم الحجري ، ونحن هنا كما في السعودية والكويت واتحاد الامارات ، لا بد من أن نعتمد على موارد النفط لنبني نهضتنا الصناعية ايضا . مثل هذه الفرص لا تتاح في تاريخ الشعوب الا نادرا . وعلينا ان لا نتركها تفلت من ايدينا وان نكون في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقنا .

قال الصحفي : هل فكرت يا سيدي او تخيلت كيف ستكون الصورة الاجتماعية لقطر بل منطقة الخليج كلها بعد التصنيع ؟ هل بالامكان بناء مجتمع صناعي بدون المفاهيم والقيم والعادات الصناعية ؟ هل نستطيع اخذ حضارة الآلة والسيارة والتلفزيون دون ان ينتهي مجتمعنا الى الصورة الهبية التي نراها في المجتمعات الغربيه ؛


قال الشيخ : نناقش مرارا هذا الموضوع . عندنا مجموعة من الخبراء في مركز التنمية عملها الرئيسي هو التفكير ومحاولة اكتشاف المشاكل التي سنواجهها في المستقبل . وقد انتهينا الى قناعات ثلاث . الاولى ان هناك مجتمعات صناعية عديدة لم يعتورها الانحلال الذي نراه في اوروبا . هناك اليابان والصين مثلا حيث لم يستطع المجتمع الصناعي ان يغير الملامح القومية لهذه البلاد . ولذلك فانا اسمح لمجتمع عربي ان يتفاعل مع

العوامل الاجتماعية التي ستأتي مع التصنيع دون التفريط بالتقاليد والعادات العريقة لهذا المجتمع . القناعة الثانية هي اننا امام فرصة لتجاوز الاخطاء التي وقعت فيها البلاد الاخرى : عندنا خط للحياة الاسلامية يمكن العودة اليه لاستنباط الثورة العصرية التي تنسجم مع نفسيتنا وعاداتنا وتقاليدنا . فأبواب الاجتهاد مفتوحة . اما القناعة الثالثة فهي ضرورة التخطيط الاجتماعي ليسير جنبا الى جنب مع التخطيط الاقتصادي . مثلا تخطيط المناطق الصناعية ينقسم الى قسمين . قسم لاقامة المصانع وقسم لاقامة المدن الصناعية . ونحن نسير في الاتجاهين معا . ونعمل منذ الان على انشاء لجان للتخطيط والتنسيق بين اعمال الادارات المختلفة في مجال تطوير المدن والقرى . كذلك فنحن نسير الى شبه ثورة في سياسة التعليم . نضع دراسة لاحتياجات قطر والمنطقة من الكفاءات والخبرات العلميه لنوجه طلابنا اليها . ولعلك تعلم ان عندنا مدارس مهنية متنوعة وعندنا مركز تدريب مهني فني هو الاول من نوعه في الخليج . وقد تبنته الامم المتحدة واعتبرته المركز الاقليمي للتدريب المهني . وفي مجال البعثات التعليمية للخارج نحاول زيادة عدد البعثات الفنيه والعلمية ونعمل على تقليل البعثات المتخصصة في الاداب والعلوم النظرية . قبل خمس سنوات كان معظم طلابنا يتخصصون مثلا في الاداب والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع . والان بدأت الاية تنعكس . اصبحنا نعمل على ارسال بعثات للهندسة والطب والعلوم والقانون والتجارة والادارة والاعمال والشؤون المصرفية .

للتصنيع مشاكل كثيرة لا بد من مواجهتها ، ولكن بعد اقامة المجتمع الصناعي . انت لا تستطيع ان تمسك نفسك عن الاكل خوفا من ان تصاب بالمغص . تأكل اولا لتعيش فاذا ما اصبت بعارض صحي عالجته بالعقاقير او بالوقاية المسبقة . نحن نسير الى الامام خطوة خطوة وبحكمة بالغة . انني اتصور قطر بعد ٢٥ سنة وقد تجاوز سكانها المليون نسمه . نسبة المواطنين والايدي الفنية التي سيحتاجها التصنيع وعائلاتها ستظل الى المليون وقد تزيد . ونحن نعمل على هذا الاساس .

قال الصحفي : والمنطقة ؟ كيف ستكون لمنطقة ؟ وقال الشيخ خليفة : الطرق المعبدة والاوتوسترادات والمطارات والموانىء وكافة طرق المواصلات سوف تشد منطقة الخليج بعضها الى بعض كما تشد شرايين الدم جسم الانسان . ستكون منطقة متكاملة مفتوحة للتجاره وانتقال المواطنين ورساميلهم .

قال الصحفي : في العام الماضي تحدثت عن انشاء سوق عربية مشتركة في الخليج وانشاء بنوك مشتركة وتوحيد التشريعات المالية والاقتصادية المنظمة للمصاريف والشركات وتوحيد قوانين التجارة . وقال الشيخ : في العام الماضي قلت واكرر اليوم ما قلته من ان سياسة العالم كله تبني على اسس اقتصاديه . الوفاق الاميركي — السوفياتي لم يكن ثمرة احلام سياسية بل فرضته المصالح الاقتصادية





بالدرجة الاولى . والمصالح الاقتصادية التي نبتت الان فوق رمال الصحارى هي التي ستفرض الهياكل والاشكال ونوعية المؤسسات الادارية والسياسية ايضا . واي عائق سياسي او شخصي لا بد ان يسقط اذا حاول الوقوف في وجه التقدم والنمو . فنحن لا نملك ولا يحق لنا ان نفرض احلامنا وتصوراتنا على الناس فالحاجة والمصالح وحركة التقدم هي التي ستفرض اشكالها ومؤسساتها . ونحن لا نملك اكثر من ان نحلم ونفكر ونمد اعيننا الى المستقبل ، حتى اذا واجهتنا التغيرات لا نفاجأ بها ونكون قد فكرنا بها من قبل . لقد بقيت الامم المتحدة سنوات وهي تبحث عن كيفية ردم الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، والدول المتقدمة صناعيا والدول النامية والمتخلفة ، وقد جاءت ازمة النفط الاخيرة ، لا لتعطي العرب وزنا دوليا جديدا فحسب بل لتقدم ايضا الحل للتوازن بين الدول الصناعية ودول العالم الثالث . لقد اصبحنا اليوم شركاء ، نحن نملك المواد الخام وهم يملكون الخبرة والمعرفة . وهذا عصر جديد يوشك ان يبدأ في تاريخ البشرية . ويخيل الي ان عصر التعامل بالنقد يوشك ان يفسح الطريق لعصر جديد من المقايضة . المال مقابل المعرفة والمواد الخام مقابل الخبرة في التصنيع .

قال الصحفي : تحدثنا في كل شيء الا في القضايا السياسية .

قال الشيخ : الحديث عن كل القضايا السياسية هو حديث معاد وليس فيه جديد المهم هو القضيه الفلسطينية . انها قضيتنا مثلما هي قضية الفلسطينيين . انها محور سياستنا وعلاقاتنا مع الدول . في مؤتمر دول عدم الانحياز ، ثم في مؤتمر القمة في الجزائر ، كذلك في مؤتمر القمة الاسلامي الذي سيعقد في « لاهور » تعتبر القضية الفلسطينية هي الاساس . ونحن عندما نضع ميزانية التنمية نحسب اولا حساب التزاماتنا القومية بشأن القضية الفلسطينية . ونحن في قطر نقدر للفلسطينيين الدور الذي لعبوه مع رعايا الدول العربية الشقيقة في معركه التنمية التي خاضتها البلاد . لذلك نحس نحوهم بمسؤولية خاصة تضاف الى مسؤوليتنا ازاء قضيتهم القومية . »

بعد هذا الحديث جاءت التطورات لتثبت ان الكلام ليس كلاما فقط وان الاحلام لم تكن اوسع من حيز التنفيذ . ففي حزيران — تموز من عام ١٩٧٥ قالت صحيفة التايمز اللندنية : « عندما كشفت ميزانية دولة قطر لهذا العام عن تفاصيل المشروعات المقترحة دهشت الدوائر الدبلوماسية في الدوحه للتعديلات التصاعدية التي اصابت هذه المشروعات في المدى والتكاليف . وفيما يلي تصنيف هذه المشروعات .

مشروع للحديد بتكاليف ٨٠٠ مليون ريال (حوالي ١٠٠ مليون جنيه استرليني) بالتعاون مع مؤسستين يابانيتين . وستملك حكومة قطر سبعين بالمائة من اسهم المشروع . ويتوقع ان ينتج معمل الحديد والصلب ثلاثمائة الف طن من القضبان الحديدية للبناء المسلح في عامه الاول . وتجري

المفاوضات لشراء خام الحديد مع الهند والبرازيل وينتظر أن يبدأ الانتاج في أخر عام ١٩٧٧ .

سيقوم الشركاء اليابانيون بتقديم الخبرة الفنية والادارة وقد وقع عقد بذلك . كما وقع عقد آخر لترتيبات التسويق التي سيقوم بها اليابانيون مقابل رسوم اتفق عليها . وقد اوصت قطر على خمسة وسبعين الف طن من الانتاج لاستهلاكها الخاص . أما الباقي فسيكون جاهزا للتصدير .

في العام التالي سيقفز الانتاج الى ما بين اربعمائة الف طن واربعمائة وخمسين الفا وقد وقع عقد آخر لانتاج ثلاثمائة وخمسين الف طن من اسفنج الحديد في العام الثاني . وسيعمل المصنع بالغاز . وقد خصص له مبلغ خمسين مليون ريال في ميزانية عام ١٩٧٥ .

ووقع عقد في نيسان من عام ١٩٧٥ لمشروع بتروكيماوي بين الحكومة ومؤسستين فرنسيتين وتملك حكومة قطر ثمانين بالمائة من المشروع .

وسينتج المعمل ثلاثمائة الف طن من الاتيلين ومائتي الف طن من البوليتيلين سنويا . وسيحجز خمسة عشر الف طن من البوليتيلين للاستهلاك المحلي . كما سينتج عن ذلك حوالي ستين الف طن من الكبريت سنويا .

من المتوقع ان يبدأ الانتاج عام ١٩٧٩ . وقد خصص مبلغ عشرة ملايين ريال من ميزانية هذا العام لهذا المشروع . وسيقام مجمع بتروكيماوي مماثل في دنكيرك بفرنسا حيث تملك فرنسا ستين بالمائة من الاسهم بينما تملك قطر اربعين بالمائة منها . وسينتج مجمع دنكيرك اربعمائة وخمسين الف طن من الاتيلين ومائة وخمسين الف طن من البوليتيلين سنويا .

ثمة مشروع للغاز الطبيعي بتكاليف تقدر بالف ومائتي مليون ريال . لقد بدأت شركة غاز قطر التي تأسست لاستغلال الغاز الطبيعي مؤخرا في تصدير الغاز السائل من مصنعها الذي كلف مائتين وخمسين مليون ريال وقد صدرت اول شحنة الى اليابان في شهر كانون الثاني — يناير من عام ١٩٧٥ . وهذا المعمل يستعمل الغاز المصاحب للبترول من حقل دخان .

المعمل الحالي هو في منطقة ام سعيد الصناعية على الساحل الشرقي وهو ذو طاقة انتاجية تبلغ ثمانمائة الف طن من الميثين والبروبين والبيوتان والمنتجات المصاحبة . وقد دخلت شركة غاز قطر في مشروع أكبر مع شركة شل التي تعمل في المناطق البحرية الشرقية . وقد حضرت العطاءات لهذا المشروع . وسيعمل المصنع في البداية على الاستفادة من الغاز المصاحب الا انه في مرحلة لاحقة سيبدأ بالاستفادة من الغاز الطبيعي . ولا يتوقع ان يتم هذا المشروع قبل عام ١٩٧٨ . ولكن ستين مليون ريال قد خصصت للمشروع في ميزانية العام الحالي .

وهكذا يمضي تعداد المشاريع الصناعية . مصنع آخر للاسمنت بتكاليف مائتين وخمسين مليون ريال . المصنع الاول للاسمنت كلف اثنين

وثمانين مليون ريال وافتتح في عام ١٩٦٩ وهو ينتج سبعمائه وخمسين طنا يوميا مستعملا ثروة قطر من التربة الجيرية . وقد وقع عقد مع شركة المانية لتوسيع المصنع خلال خمسة عشر شهرا لانتاج ثلاثمائة وخمسين طنا اضافيا يوميا . وتستعمل قطر في الوقت الحاضر كل انتاجها من الاسمنت . أما المصنع الثاني للاسمنت فسينتج الفا وثمانمائة طن يوميا ثم يرتفع الانتاج بعد عامين ونصف الى ثلاثة الاف طن يوميا . وتملك الحكومة القطرية ستين بالمائة من اسهم شركة قطر الوطنية للاسمنت بينما يملك القطاع الخاص في قطر بقية الاسهم .

أما مصنع الاسمدة الكيماوية في ام سعيد فهو اكبر مشروع صناعي في قطر حتى الان . فهو ينتج تسعمائة طن من الامونيا يوميا والف طن من اليوريا . وقد صدرت أول شحنة منه الى اوروبا في اذار – مارس ١٩٧٤ . وقد فاق هذا المشروع في نجاحه جميع التقديرات الأولية حيث قدر انه سيغطي تكاليفه خلال اكثر من عشر سنوات فاصبح من المتوقع ان يغطي تكاليفه في اقل من ست سنوات .

في ايلول – سبتمبر من عام ١٩٧٦ قالت التايمز :ان قطر قد اصبحت الدولة المحلية والتي تسبق كثيرا جميع اقطار شبه الجزيرة العربية في البتروكيماويات . فعندها مصنعان ينتجان ومصنع ثالث تحت البناء ومصنعان آخران تحت التصميم . وان تطوير صناعة البتروكيماويات على هذا المقياس يرجع الى ادراك حقيقة أن الغاز هو ثروة قطر الرئيسية وذلك قبل عدد من السنين .

ومضت صحيفة التايمز في عام ١٩٧٥ في تعداد المشاريع الصناعية في قطر فقالت ان الحكومة تجري محادثات أولية مع ثلاث شركات لمشروع فرن للالمنيوم ينتج مائة واربعين الف طن في العام . وتجري المفاوضات مع استراليا لتأمين خام للالمنيوم . وتملك قطر معملا لتكرير البترول كلف خمسة وسبعين مليون دولار وينتج ستة الاف برميل يوميا للاستهلاك المحلي . وقد بدا انتاجه عام ١٩٧٤ . ويجري توسيعه لانتاج ما بين عشرة الاف واربعة عشر الف برميل في اليوم . ولكن يجري اعداد الخطط لبناء معمل تكرير اضخم بكثير لانتاج ما بين مائة وخمسين الف الى مائتي الف برميل في اليوم وسيكلف هذا المعمل الفا وخمسين مليون ريال وينتظر ان يبدأ الانتاج في عام ١٩٧٩ .

اما شركة مطاحن الدقيق القطرية التي تعمل منذ عام ١٩٧٢ بطاقة مائة طن يوميا فتنوي بناء مصنع صغير للاكياس لاحتياجات الطحين والاسمنت .

الإقتصاد والسياسة

انطلاقا من ايمان الشيخ خليفة بأن القاعدة الاقتصادية هي التي تخلق الاشكال والعلاقات السياسية سواء في الداخل او في الخارج فقد ركز

على بناء هذه القاعدة على اسس من المشاركة في الداخل بحيث يملك القطاع العام (اي الحكومة) القسم الاكبر في كل مشروع انتاجي كبير . وقد كانت هذه السياسة سياسة حكيمة وضرورية . فهي اعطت تفسيرا ومعنى عمليا لدور الحكومة كما ورد في النظام الاساسي المؤقت من أنها تعمل لصالح جميع المواطنين واطلاق طاقاتهم وامكانياتهم . وقد اخذت الحكومة زمام المبادرة نيابة عن الشعب في المجال الاقتصادي فخططت وصممت ونفذت وظلت تملك اغلبية الاسهم فلم تفسح المجال لسيطرة راس المال على الحكم او تجاوز القطاع الخاص حده في النفوذ . وقد جعلت الحكومة بذلك العلاقة بين قطاعات المجتمع علاقة تعاون ففتحت الباب امام المبادرات الفردية وافسحت المجال امام حرية راس المال في حدود المنفعة العامة .

وكانت مشاركة الشركات الاجنبية من بريطانية وفرنسية والمانية ويابانية وغيرها ايضا ذات فوائد ضرورية . فلم يكن المقصود بهذه المشاركة استجلاب رؤوس الاموال الاجنبية اذ أن دولة قطر تعد من الدول المصدرة لرؤوس الاموال . ولكن الحكمة في هذه المشاركة هي في الحصول اولا على افضل الخبرات التكنولوجية والادارية لدولة تحتاج الى استيراد هذه الخبرات ، ثم في النفاذ الى اسواق الدول التي تنتمي اليها هذه الشركات الاجنبية . فالرأسمالية العالمية قادرة بقوتها على خنق اية صناعة ناشئة تريد ان تنافسها في اسواقها وهي تستطيع ان تمارس المنافسة بوسائل عديدة ليس اقلها احتكار الخبرة التكنولوجية والادارية وممارسة النفوذ السياسي والمالي لاغلاق الأسواق .

من هنا فان سياسة تنويع مصادر الدخل قد فرضت بصورة طبيعية وعقلانية تنويع العلاقات السياسية والاقتصادية الخارجية ، فوجدت دولة قطر تدميها طليقتين بعد استعادة الاستقلال في العودة الى سياسة التوازن في العلاقات الدولية . ويمكن القول ان دولة قطر الحديثة لم تتعلم هذه السياسة حديثا وانما مارستها بصورة غريزية تقريبا حيث مارسها من قبل بشكل اخر الشيخ قاسم بن محمد وربما مارسها قبل ايضا غيره من زعماء شبه الجزيرة القطرية . وان دولة قطر في هذه السياسة تتمشى مع اعرق اصول البراغماتية أو السياسة العملية التي لا تتهيب من رؤيه الواقع والتمشي مع متطلباته .

غير ان ثمة فرقا بين الاهداف المصلحية في السياسة وبين قضايا الانتماء . وقد اتضح هذا في مقابلة صحفية اجرتها صحيفة « دير شبيغل » الالمانية مع الشيخ خليفة بعيد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ولقيت المقابلة اهتماما على نطاق واسع . ففي اجابته حول سياسة النفط العربية اوضح الشيخ خليفة نقاطا هامة حيث قال : « اننا نسعى في الوقت الراهن الى سياسة عربية موحدة . ونحن نحاول تركيز جهودنا على هدف واحد هو استعادة الاراضي

العربية المحتلة وتحقيق حقوق الشعب الفلسطيني . ولن نتردد في العمل بقوة واستخدام كافة الوسائل في سبيل ذلك ، واريد ان اؤكد على أي حال اننا نسعى الى الحل السلمي » .

« اننـــا لـــم نرغب عن طريق تخفيض امدادات النفط ان نسيء الى اصدقائنا او ان نؤدب اي جهة . لقد رغبنا في ان نمنع بلدا عنده الكثير مـــن النفط ان يهربه الى بلد آخر يقع تحت طائلة المقاطعة . اننا نعتبر جميـــــــع الاقطار اصدقاء لنا طالما انها لا تعترف عن سوء نية بانها عدوة لنا » . وكان الشيخ خليفة يشير بذلك الى بعض الدول التي منعت الدول العربية النفط عنها لانها كانت تهرب النفط الى اسرائيل .

في مجال المشاركة القومية ، لا يعرف احـــد بالضبط المعونات المادية التي قدمتها دولة قطر خـــلال حرب اكتوبر وبعدها الى دول المواجهة مـــع اسرائيل . فان قطر تتحفظ في اعلانها لهذه المساعدات لا لاسباب امنية فحسب وانما لاسباب خلقية حيث تعتبر ان هذا العمل واجب لا يجوز ان يشتم منه اية رائحة او تجمل . وكذلك الامر بالنسبة لمساعداتها للقضية الفلسطينية . ولكن يمكن رؤية الدور الذي لعبته قطر من الزيارة الرسمية التي قـــام بها الشيخ خليفة عام ١٩٧٤ الى دول المواجهة العربية والاستقبال الحافل الذي استقبل به في تلك الدول . وكانت قطر احدى دول عربية اربع اخذت تعد للمستقبل العربي بانشاء مؤسسة الصناعات الحربية العربية التي ساهمت في انشائها ايضا كل من مصر والسعودية واتحاد الامارات العربية براسمال أولي يبـــلغ الف مليون دولار . كمـــا كانت احدى الدول التي ساهمت في الصندوق الخاص بدعم مصر ومساعدتها على التنمية . كما شاركت قطر في تأسيس بنك التنمية الاسلامي ووكالة الانباء الاسلامية وغيرها من دول العالم الثالث في افريقيا وآسيا . وقد بلغت مساعدات قطر ٢٠ بالمائة من دخلها لعام ١٩٧٣ و ١٢ بالمائة من دخلها لعام ٧٣ و ٢٠ بالمائة لعام ٧٥ .

قطـــر والخـــليج

يبقى الخليج العربي في صلب اهتمامات الشيخ خليفة ودولة قطر فالشيخ خليفة كما وصفه احد الصحفيين رجل يضع الاولويات اولا .

تحتفظ دولة قطر الان باحدى وعشرين سفارة خارجية بالاضافة الى سفيرين في الامم المتحدة وجامعة الدول العربية . ويغطي السفراء اربع عشرة دولة أخرى . وتقيم قطر علاقات تجارية مـــع بعض الدول الاشتراكية . ومكانتها الدولية تتقـــدم باستمرار عـــلى الاصعدة السياسية والاقتصادية والمالية . الا انه مع كل هذه المكانة فـــان سياسة قطر الرئيسية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا تبقى متجهة نحو الخليج بصورة رئيسية . ولعل ذلك هو من ادراك طبيعة الامور عبر التاريخ حيث ان الخليج دوما فيما عدا

عهود التخلف والسيطرة الاجنبية منطقة واحدة يجمعها مصير واحد .

منـذ مـا قبل الاستقلال كانت دولة قطر تقدم المساعدات الصحية والتعليمية وغيرها من المساعدات للامارات والمناطق التي لم تفض فيهـا ثروة النفط . وكان الشيخ خليفة متحمسا بشدة لفكرة الاتحاد التساعي بين امارات الخليج ولم يضن بجهده وعمله الدائب للفكرة خلال ثلاث سنوات من السعي نحو الاتحاد . ولكنه لم ييأس ولم ينفض يده من المشروع عندمـا تعثرت فكرة الاتحاد بل ازداد حماسة وايمانا وتصميما . وكل ما فعله هو انه عـاد الى رأيـه في أن بنـاء القاعدة الاقتصادية الاتحادية وجمع المصالح المشتركة اولا كفيل بأن يأتي في النهاية بالاشكال السياسية الاتحادية .

الاتحاد في الخليج عنـد الشيخ خليفة ليس حلمـا رومانطيكيا ولكنه ضرورة اقتصادية وسياسية وامنية في جميع المجالات . فان سكان كـل امارة من الامارات لا يشكلون وحدهم قـوة شرائية كافية لنمو الصناعات الاستهلاكية المحلية بشكل طبيعي . كما ان انشاء مشاريع صناعية متشابهة ضخمة في الامارات دون تنسيق من شأنه أن يخلق منافسة وفائضا ليس في مصلحة هذه الامارات . وقد تبنى الشيخ خليفة لذلك دعوة الى اقامة سوق مشتركة في الخليج على اساس التكامل الاقتصادي وتوحيد النقد والتعريفة الجمركية وقوانين التجارة وانتقال رؤوس الاموال . وقد قام الشيخ خليفة بزيارة الى دولة اتحاد الامارات العربية وعرض الفكرة وناقشها واتفق على تشكيل لجنة وزارية مشتركة لتحقيق خطوات اولية مهمة غايتها الوصول الى الهدف المنشود .

وتابع الشيخ خليفة الجهد فوجه الدعوة الى ولي عهد الكويت رئيـس وزرائها الشيخ جابر الاحمد الصباح لزيارة الدوحة والتباحث في هذا الامر . وقد لبى الشيخ جابر الدعوة وتم الاتفاق على تشكيل لجنة كويتية ـ قطريـة مشتركة اجتمعت مرارا مـن أجـل نفس الهدف . وبينمـا سارت الفكرة واصبحت مقبولة لم تتوقف قطر عـن المشاركة في المشروعات المشتركة في الخليج والتي تناولت بصورة رئيسية النقل البري والجوي والبحري . كما أنها لم تتوقف عن المشاركة في المشاريع الاستثمارية المتعلقة بتصدير رؤوس الاموال للتوظيف المـالي .

المحادثات عـلى اعلى المستويات تجري باستمرار الان في صمت في الخليج . والتطورات تجري بسرعة اكثر مما ظن الكثيرون . وفي خلال خمس سنوات من الاستقلال يبدو أن الخليج يستعيد ديناميكيته ويقترب بعضه من البعض الاخر بصورة تبعث على التفاؤل .

في احدى احاديثه الصحفية قال الشيخ خليفة :

« ليس سرا أن منطقتنا مطموع فيها . واختلاف الاجتهادات وتضارب المصالح الاقليمية الضيقة قد يفسد علينا فرصة الاستفادة من هذه الثروات

التي اعطاها لنا الله . لن يكون لنا عذرا اذا لم نقبض على الفرصة المتاحة لنا لنبني في هذه البقعة الغالية من العالم العربي تجربة وحدوية رائدة » . . .

وسكت الامير ثم قال : « انتم تعرفون الجهود التي بذلتها والكفاءات والخبرات التي جندتها لوضع الاسس الدستورية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لمشروع الاتحاد التساعي . دراسات ومشاريع قوانين ولوائح لا تزال تعتبر مرجعا لاي تشريع وحدوي او اتحادي في المنطقة . ولا مجال هنا للبحث عن المسؤول او المسؤولين عن فشل الاتحاد التساعي . في كثير من الاوقات اقول لنفسي لعله كان من الافضل ان يبدأ الاتحاد بالنواحي العملية لكي لا يصطدم بالاجتهادات السياسية المختلفة . على العموم فاتنا الاتحاد . ولكن في امكاننا اقامة نظام كونفدرالي تبقى معه السيادات الاقليمية كما هي ولكن يولد من خلاله ما يشبه السوق المشتركة للدول العربية في الخليج على غرار السوق الاوروبية المشتركة » .

واضاف الشيخ خليفة قائلا : « الرغبة موجودة الان عند الجميع . والمهم ان تتـألف هيئـة او لجنة مشتركة لوضع خطـة للتنمية الاقتصادية والصناعية للمنطقة ككل وبدون وجود دراسات لا يمكن معرفة نقطة الانطلاق في العمل . وفي رأيي اننا اذا كنا قد استطعنا ان نوحد سياستنا البترولية من خلال منظمة « اوبيك » ففي الامكان توحيد مشاريعنا في صناعة مشتقات البترول » .

صور وملامح

لا ريب ان اهل قطر يعيشون اياما مثيرة . بعضهم يذكر الآن ذلـك الوقت الذي كانت فيـه البلاد موحشة فقيرة قليلة السكان . وكانت خالية تقريبا مـن جميع المرافق الاساسية العصرية كالكهرباء والمـاء الجاري والمدارس ووسائل العلاج . وقد قدرت الحكومة العثمانية عدد سكان قطر في اواخر القرن الماضي بحوالي عشرين الف نسمة يقيم ثمانية الاف منهم في العاصمة والباقون في اطراف البلاد المختلفة وفي عام ١٩١٦ قدر البريطانيون عدد السكان بنحو ستة وعشرين الف نسمة . وفي خلال اربعين سنة تقريبا لم يطرأ اي تغيير كبير على احوال المعيشة وعدد السكان (اذ ان احصاءات الامم المتحدة قدرت عدد السكان) عام ١٩٥٣ بحوالي خمسة وعشرين الف نسمة .

هذا يعني ان معظم شعب قطر ممن تزيد اعمارهم على الثلاثين قـد شهدوا ايام الضيق والفقر ثم راوا بأعينهم حياة جديدة تنشأ وتنمو وتترعرع وتصبح فيها الحياة غير الحياة والعيش غير العيش .

في عام ١٩٥٢ كان في قطر مدرسة واحدة للاولاد بمائتين وخمسيـن طالبا وستة معلمين . وفي عام ١٩٥٥ افتتحت مدرسة للبنات بخمسين طالبة . ثم سار التعليم بعد ذلك ليصل عدد الطلبة في قطر في بداية العام الدراسي



١٩٧٦ اكثر من ثلاثين الفا نصفهم من الطلاب والنصف الاخر من الطالبات . بالاضافة الى اكثر من الف طالب وطالبة بكليتي التربية ومئات عديدة من طلاب البعثات العلمية في الخارج .

والتعليم المجاني لا يوفر للطلبة الكتب والادوات والمساعدات المالية فحسب وانما يوفر ايضا التعليم الجامعي في الخارج على حساب الدولة .

جامعة قطر

انتهى الان اعداد وتصميم مشروع جامعة قطر التي ستكلف ٧٨٠ مليون ريال وتتسع لالوف الطلبة وستكون جامعة قطر في هندستها ومعمارها وتكوينها تعبيرا عن روح قطر التاريخية وتطلعاتها نحو المستقبل .

هندسة مبنى الجامعة تجمع بين الملامح العمرانية المحلية عبر العصور وبين أحدث الافكار العمرانية . فهي تعتمد الى حد كبير في التهوية والتدفئة على الوسائل الطبيعية التي كانت تستخدم قبل عصر النفط ، من ابراج تستقبل الهواء وتدفعه الى الداخل وتحمل وظيفة جمالية في الهندسة بالاضافة الى وظيفتها العملية ، الى النوافذ الصغيرة والجدران السميكة العازلة . وهذا مما يخفف من الاعتماد على المحروقات للتبريد والتدفئة .

وتشتمل الجامعة على مكتبة كبرى يمكن ان تصبح ارشيفا وطنيا ، كما تشتمل على مركز للصوت والصورة ذي ارتباط بالتلفزيون الوطني مجهز بنظام لنقل المحاضرات في وقت واحد الى عدة قاعات للطلاب والطالبات . كما سيكون للجامعة مزرعة تجريبية ذات ارتباط بدائرة الزراعة .

وقد بدات منذ عام ١٩٧٣ في قطر كليتان للمعلمين والمعلمات ستلحقان بالجامعة حين افتتاحها . كما بدأ العمل بتجهيز كلية للطيران المدني . ومنذ عام ١٩٧٠ بـدأ في قطر معهد للتدريب المهني يعمل على المستوى الاقليمي ويضم الان حوالي خمسمائة طالب من قطر والبلدان العربية المجاورة . هذا عدا عن المعاهد العليا من دينية وتجارية الى اخر ذلك .

المتحف الوطني

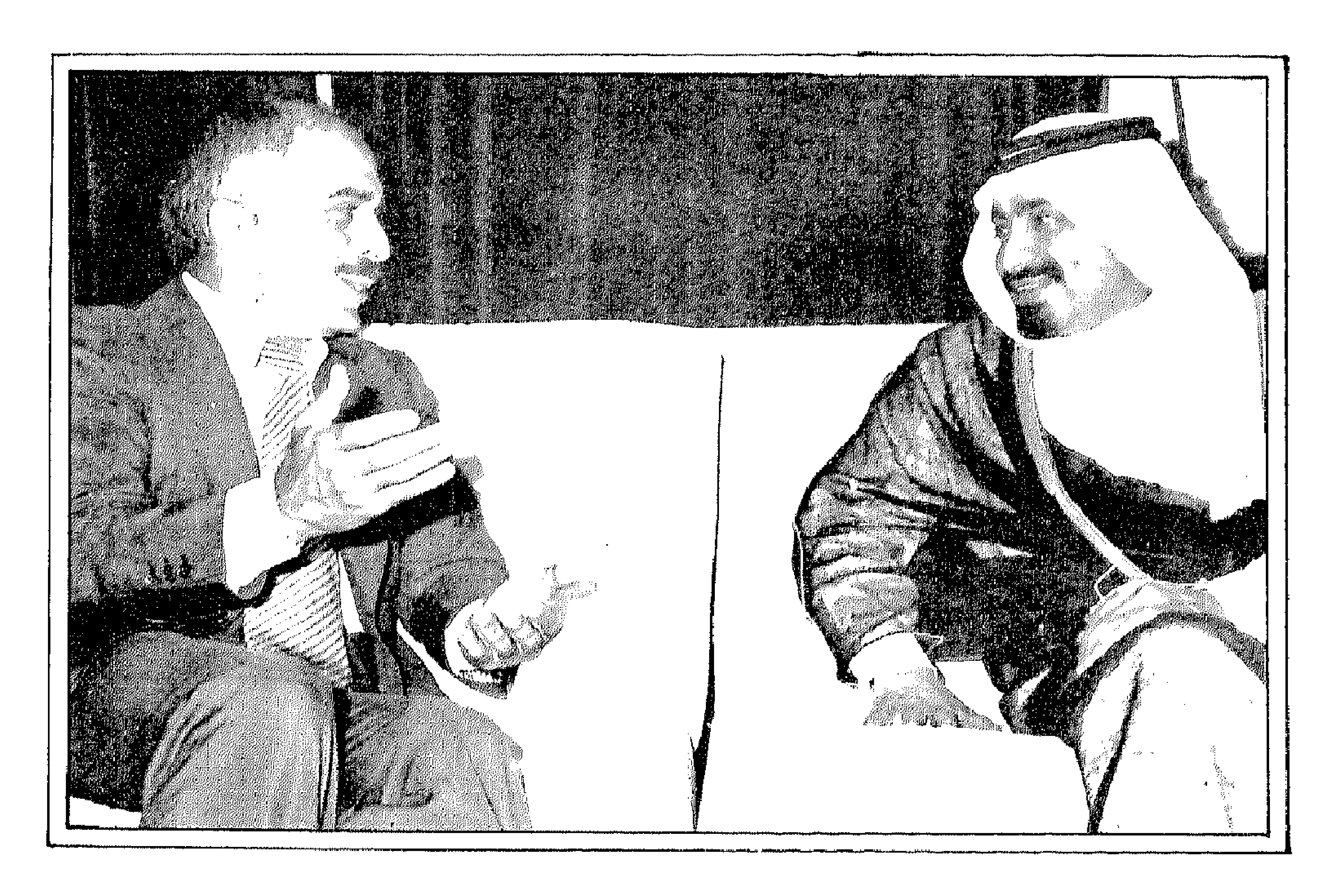
القصر الذي كان يقيم فيه الشيخ حمد بن عبدالله والد الشيخ خليفة والذي سكنه حتى عام ١٩٢٣ اعيد ترميمه وجهز على احدث الاسس ليكون متحفا وطنيا لقطر . ويعطي هذا المتحف صورة لقطر منذ اقدم العصور كما توفر ساحاته وحدائقه مكانا رائعا للجلوس في ظلال تاريخ البلد . وقد قيل عن هذا المتحف انه فريد من نوعه في الخليج كله .

المتحف الوطني هو ايضا مؤسسة تثقيفية على جميع المستويات يجمع الصور والافلام ويظهر اكثر من مائة موقع من مواقع العصر الحجري















ومنحوتات بلغة النبطيين كما يضم ادوات ووسائل مما امكن جمعه من حياه قطر . وفي خارج المتحف جهة البحر توجد بركة اصطناعية كبيرة ترسو فيها ست سفن من صناعة قطر بينها « فتح الخير » التي كانت تمثل عنفوان قطر التجاري في بداية هذا القرن والتي كادت ان تحدث ازمة دولية كما ذكرنا في غير هذا المكان .

وقد تم الان بناء متحف بحري كجزء من المتحف الوطني يضم تشكيلة كاملة لسمك الخليج . ويعمل المتحف الوطني على تنظيم دورات تثقيفية في الدراسات العربية والاسلامية . كما يقوم بتنظيم العروض الفنية والمحاضرات الثقافية .

الإعلام

دولة قطر التي تعتبر الان من انشط الدول العربية في الاعلام الداخلي والخارجي كانت حتى اواخر عام ١٩٦٧ لا تملك اذاعة او صحيفة او مجلة . ولكنها ما ان دخلت مجال التطوير الاعلامي في اوائل عام ١٩٦٨ حتى اصبحت الان تملك جهازا اعلاميا متطورا يعمل في الوسائل الثلاث : النشر والاذاعة والتلفزيون .

فمحطة الاذاعة بقوة ٧٥٠ كيلوواط على الموجة المتوسطة تسمع بوضوح في جميع انحاء منطقة الخليج وكذلك تسمع بوضوح في المساء في منطقة الشرق الاوسط . وستغطي اذاعة هذه المنطقة بجهاز ارسال من قوة ١٥٠ كيلوواط للموجة القصيرة .

أما التلفزيون القطري الملون فهو يعمل بقوة ٢٠٠ كيلوواط ويغطي معظم مناطق الخليج . وقد كان انشاء محطة القمار الصناعية في قطر مما يساعد على تحسين المواصلات اللاسلكية ونقل البرامج التلفزيونية . فهذه المحطة تحمل ثلاثين دائرة هاتفية وقناتين للاذاعة والتلفزيون . وتستطيع ان تحمل في وقت واحد خمسة الاف مكالمة هاتفية وقناتين للتلفزيون الملون . وسترتبط هذه المحطة قطر بجميع انحاء العالم عن طريق الاقمار الصناعية .

وفي قطر الان عدة صحف ومجلات محلية كما ان وزارة الاعلام تصدر مجلة شهرية ثقافية « الدوحة » على مستوى الوطن العربي . وقد نشرت معظم الصحف والمجلات العربية والاجنبية خلال السنوات القليلة الماضية ملاحق اعلامية شاملة عن دولة قطر بمختلف اللغات .

ثمة نقطة هامة في المجال الاعلامي لدولة قطر . فلقد كان الاعلام يكاد يكون مهملا بسبب ارتباطه في الذهن العام بالدعاية . وسارت الخطوات الاعلامية في قطر في البداية على حذر فاثبتت الاعلام اهميته في التنمية الداخلية وفي التفاهم ما بين الاقطار والشعوب في المجال الخارجي . وحينذاك ازداد اهتمام الدولة بالمجال الاعلامي وتحسينه الى أن اصبح الاعلام يلعب دورا هاما في نشاطات قطر .

الصحة

يحصل سكان قطر ، بمن فيهم الاجانب ، على خدمة علاجية مجانية كاملة سواء في مستشفيات قطر او في الخارج حينما يحتاج الامر الى ذلك . ففي مدينة الدوحة يوجد مستشفى الرميلة الكبير الذي يحتوي على ستمائة سرير اضيف اليه جناحان باربعة وستين سريرا . كما اضيف جناح باثنين وثلاثين سريرا الى مستشفى الولادة . وقد بدأ العمل ينتهي في اعداد مستشفى اخر كبير يضم ستمائة سرير بالاضافة الى جميع متطلبات السكن للاطباء وهيئة المستشفى . كما يحتوي هذا المستشفى الجديد على وحدات خاصة للعلاج المكثف . وقد جرى انشاء عيادات في كافة ارجاء البلاد جرى توسيع بعضها فاصبحت مستشفيات تفي بالحاجة .

الإسكان

ذكرنا ان القطري لا يجد صعوبة في امتلاك بيت حديث . وقد بدأت مشاريع الاسكان ببناء وحدات سكنية لتمليكها لذوي الدخل المحدود تقسط اثمانها على آجال طويلة بعد خصم جزء من تكاليفها . وعندما تولى الشيخ خليفة مسؤولياته الدستورية كأمير للبلد اعفى المواطنين من دفع بقية الاقساط . وجرى استحداث نظام لمنح البيوت مجانا لذوي المداخيل المنخفضة نسبيا . اما بالنسبة لكبار الموظفين من القطريين فان الدولة تمنح الواحد منهم قطعة ارض للبناء مع قرض يبلغ خمسمئة الف ريال تتحمل الدولة اربعين بالمائة منه بينما يسدد الباقي على اقساط .

دعم المواد الغذائية

وقعت قطر تحت طائلة الغلاء وارتفاع الاسعار مثل بقية انحاء العالم . وقد عالجت الدولة هذه المشكلة بعدة اساليب لحماية مستوى معيشة المواطن والسكان عموما . من هذه الاساليب دعم اسعار المواد الغذائية المستوردة الاساسية والعمل على زيادة الانتاج الزراعي والحيواني المحليين لتيسير الخضار واللحوم باسعار مقبولة . والاقتصاد القطري هو الان اقتصاد رخاء بكل ما يستتبع ذلك من ارتفاع اسعار الاراضي واجور السكن . ولكن الاقتصاد في وضع صحي ، من عملة مستقرة وفائض دائم في الميزان التجاري والعملات الصعبة . وقد بقيت نسبة التضخم في قطر اقل نسبة في الخليج حيث لم تزد في سني التضخم الكبير عن ٢٢ بالمائة في عام ١٩٧٤ و ٢٣ بالمائة في عام ١٩٧٥ .

وقد عمل الشيخ خليفة على زيادة الرواتب والاجور اكثر من مرة منذ توليه الحكم كان اخرها في تموز — يوليو من عام ١٩٧٦ حينما اصدر قرارا

باعادة تنظيم الرواتب والدرجات للموظفين . وكان من نتيجة ذلك ارتفاع هذه الرواتب والاجور بنسب كبيرة . عامل اليومية في الحكومة مثلا منح زيادة في مرتبه بمقدار ١٩٥ ريالا في الشهر كما منح مرتب شهر اضافي عن كل سنة في عمله يصرف له آخر السنة . كما تقررت له اجازة دوريه واخرى مرضيـــة لمدة خمسة عشر يوما لكل منهما في السنة .

التنظيم السياسي والاقتصادي في قطر ينبعان من فلسفة واحـــدة . فالحاكم في نظر الشيخ خليفة هو كالوالد تماما والشعب هم الابناء . بعض الابناء ، كالتجار والمقاولين مثلا ، يتقدمون احيانا على اخوانهم ويجنحون الى زيادة امتيازاتهم وتوسيع مصالحهم على حساب الفئات الاخرى . وهنا تتدخل الدولة بروح الاب ، الذي يصون روح الولد وتوازن المصالح بأكبر قدر من الرفق والحزم معا .

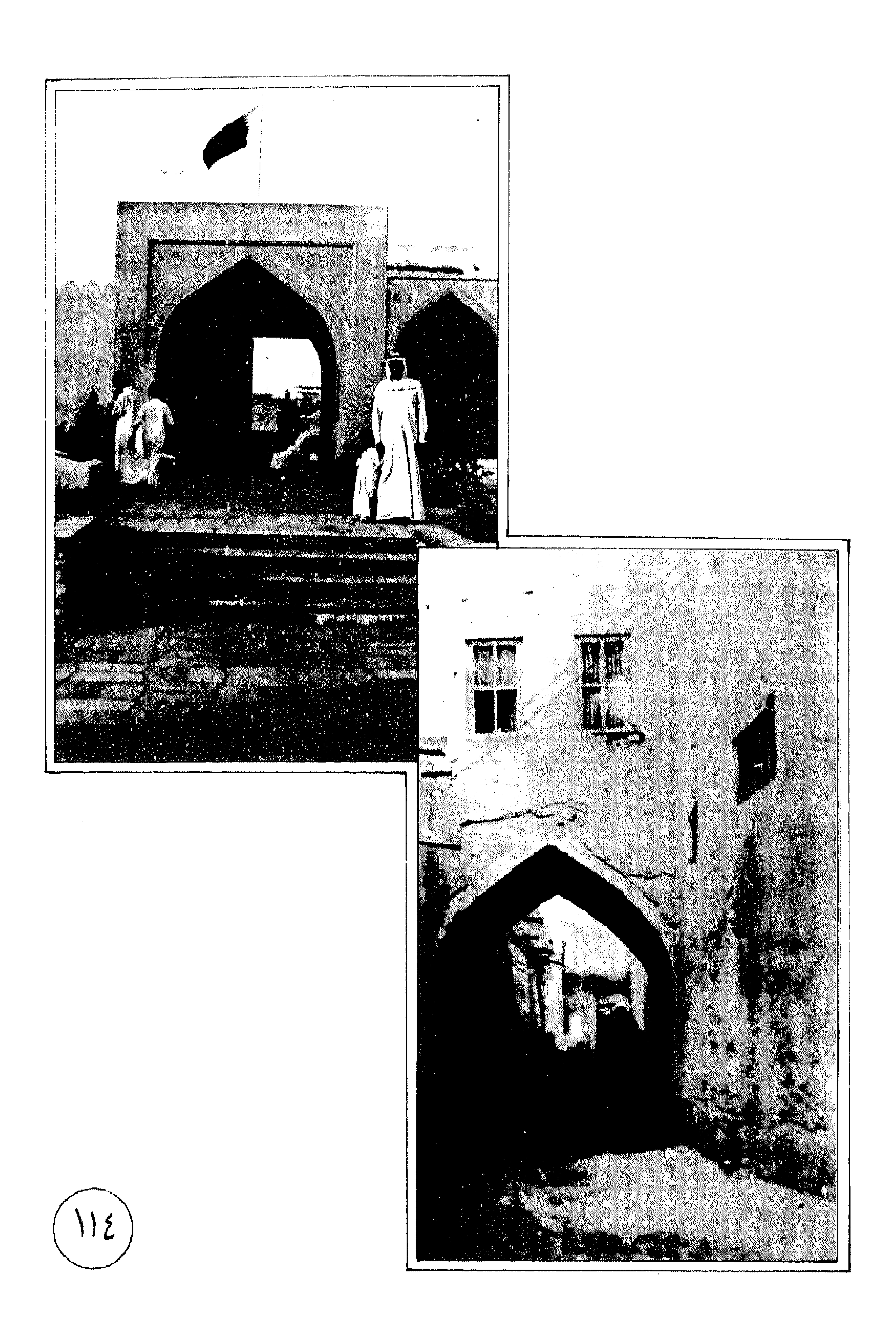
على هـــذا الاســاس وبهذه الروح يتابع الشيخ خليفة نشاط مختلف اجهزه الحكم في مجلس الشورى والوزارات والدوائر الحكومية ليطمئن الى استمرارية التفاعل النزيه بين مختلف الاتجاهات والمصالح مما يؤمن المصالح العامة للشعب ، ويصون روح العمل والمبادرة واستمراريه التقدم في الانتاج العام والنشاط الحياتي . وقد كان للشيخ خليفة في هذا المجال تجـــــارب وملاحظات حالت في حينها دون تطور الامور الى ما يمكن ان يكون ازمة ثقة مثلما حدث في بلدان اخرى . وبذلك حافظ الامير على تنميه روح المصلحـــة العامة والتعاون في سائر انشطة الدولة كما أسهم في وضع علامات وتقاليد في الممارسة الديمقراطية ستصبح جزءا من اعراف مجلس الشورى واجهزة الحكم في المستقبـــل .

هندســة وإعـــمار

لعل دولة قطر هي من الامارات القليلة في الخليج العربي التي يشعر المرء فيها بالاستمرارية التاريخية سواء في طبائع الناس او في مظهر البلد وعمرانه . فالانتقال الى المستقبل لم يات قفزة واحدة عن طريق الانقطاع عن كل ما يمت الى الماضي بصلة وانما عن طريق الانفتاح على كـــل جديد والاعتزاز بكـــل تليد .

وقد ذكرنا تصميم الجامعة القطرية وهندستها التي تحافظ على ملامـــح الخليج العربي وروحها وتستفيد من تلك الملامح في هندســة واعمار مستقبلي . وفي هذا المجال يبرز ايضا التخطيط الجديد لمدينة الدوحة وسائر شبـــه الجزيرة القطرية حيث يتحول الميناء الذي كان ضحلا في يوم من الايام الى دائرة عميقة من المياه الهادئة تحيط بها المدينة كهلال وفي هذا الهلال تسير الطرق والشوارع العريضة كدوائر تحيط بالمركز .

الطرق الداخلية في قطر تربط جميـــع المدن والقرى بعضها بالبعض



الاخر وتتصل كلها بالطرق الدولية التي تسير الى سلوى في الجنوب فتتصل بالطرق الموصلة الى الكويت والعراق واقطار شرق البحر الابيض المتوسط .

والمواصلات بجميع اشكالها هي عبارة عن كتابة وخطوط لقراءة المستقبل . فميناء الدوحة الذي يشكل طرف هلالها الجنوبي يجري تمديده ليتسع لعشر سفن في وقت واحد بدلا من خمس . وفي الوقت الذي يجري فيه توسيع مطار الدوحة الدولي يجري العمل على بناء مطار دولي آخر سيكون مدرجه من اطول المدارج في العالم حيث يبلغ طول المدرج اربعة الاف وخمسمائة متر . وسيبرز دور هذا المطار بتسهيلاته وتجهيزاته بروزا واضحا في مجال مواصلات المنطقة والمواصلات العالمية .

تملك دولة قطر ربع اسهم شركة طيران الخليج وهو نصيب مساو لانصبة كل من دولة الاتحاد الامارات العربية ودولة البحرين وسلطنة عمان . وتعمل الدول الاربع معا على تطوير هذه الشركة لتكون من اكبر شركات الطيران العالمية فهي تغطي المنطقة الان ما بين لندن وبومبي في الهند بالاضافة الى الخطوط الداخلية في الخليج . وتملك هذه الشركة الان ثماني طائرات كبيرة كما انها اشترت تسع طائرات اخرى بالاضافة الى وجود عدد من الطائرات الاصغر حجما والتي تعمل على خطوط الخليج الداخلية .

ويبرز اهتمام قطر بالطيران من اقبالها على انشاء كلية للطيران المدني هي الاولى من نوعها في الخليج .

قطر والمستقبل

ربما كان يصعب تصور قطر الحاضر في النصف الاول من هذا القرن . كان يصعب تصور المظهر الخارجي بمقدار ما كان يصعب تصور العلاقات بين فئات المجتمع المختلفة بالنظر الى عدم معرفة تاثير المظهر ومؤسساته في تلك العلاقات .

ولكن ملامح المستقبل اخذت تبدو الان في قطر لعين الدارس والمدقق بعد ان اتضح أن الاساس هو المحافظة على روح التعاون في المجتمع وتطويرها بحيث تبقى لهذا المجتمع سماته التاريخية الاساسية ويكون المظهر غلافا لهذه السمات .

ان مستقبل قطر يعتمد الى حد كبير على قدرة المجتمع في قطر وعلى تخطي المشاكل الجديدة بروح الانفتاح من جهة وروح المحافظة من جهة اخرى بحيث لا يختل التوازن . ويبدو ان اعظم المنجزات التي تنتظر دولة قطر ليست في مجال العمران والتصنيع لان هذه يمكن تحقيقها بما يتوفر من امكانيات مادية ضخمة . ولكنها ـ اي هذه المنجزات ـ هي في مجال تكريس روح البلاد وشعبها في مؤسسات تعيش بعد موت الاشخاص .

ويبدو ان الشيخ خليفة ـ الذي يعتبر بحق مؤسس دولة قطر الحديثة ـ قد وعى هذه الناحية واخذ يعطيها الان اهتمامه الاكبر .

يبقى ان الزائر لقطر يستطيع ان يرى مستقبلها وهــو يتبلور على الطبيعة عاما بعد عام . واما المستقبل الذي لا تراه العين فهو ذلك الذي يعتمل في صدور ابنائها وعقولهم ووجدانهم ويعبرون عن ملامحه في مسرحياتهم ولوحاتهم الفنيــة وشعرهم وغنائهم .

اجمل ما في قطر المستقبل أنها لن تكون منقطعة عن الماضي السحيق بأمجاده التي لم تبق منها آثار على الرمال وانما آثارها في نفوس الرجال .





